مَا تَبقَى مِن الضّوءِ

(مجموعة قصصيَّة)

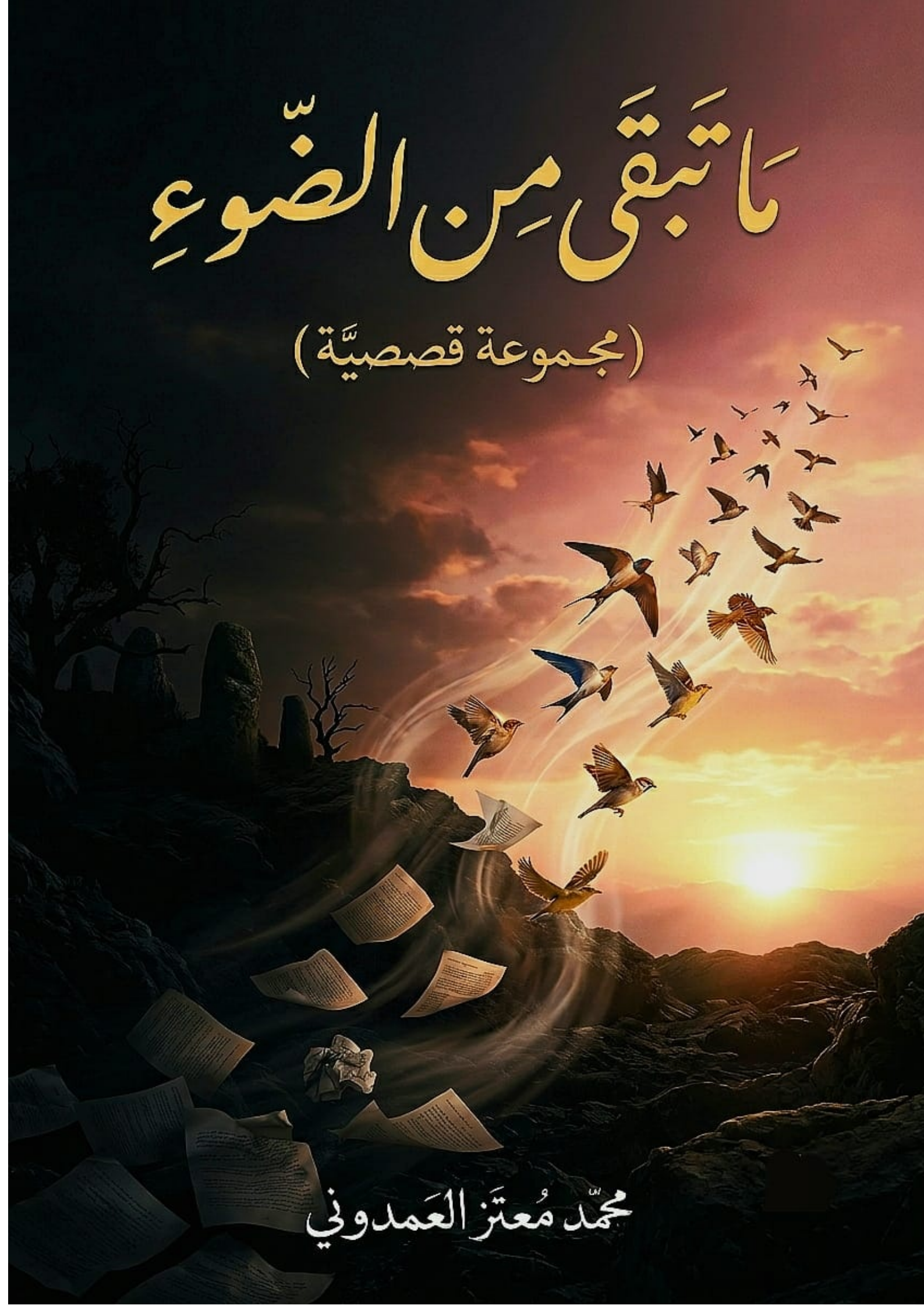

مُحمّد مُعتَز العَمدوني

مَا بَقِيَ مِنَ الضَّوءِ

مجموعة قصصية

تأليف:

محمّد مُعتَز العَمدوني

الإهداء

إلى النبع الأوّل، والملجأ الآمن..

إلى (أمي).. يا من علمتني كيف أقرأ الحياة بقلبي قبل عينيّ، ويا من كنتِ وما زلتِ الضياء الذي يبدد عتمة حيرتي، والدعاء الخفيّ الذي يمهد لي وعورة الطريق.

إلى (أبي)..

سندي الرصين، ومنبع قوتي وثباتي.. يا من غرستَ في داخلي قيمة الحرف، وعلمتني أن أقف بشموخٍ أمام عواصف الأيام، وأن أصنع من الشغفِ أثراً لا يمحوه الزمن.

إلى (إخوتي)..

شركاء العمر والخطوات الأولى، الذين تقاسمتُ معهم تفاصيل الحكاية، وظلوا دائماً السور الذي أستند إليه كلما تلاشت الوعود أو نالت مني الأيام؛ أنتم عائلتي الصادقة التي تجعل من هذا العالم مكاناً يستحق الكتابة عنه.

وإلى الأرواح النابضة التي تعبر قطار العمر..

إلى الذين يملكون قصةً صامتة لم تُروَ بعد، ويبحثون عن ملامحهم الصادقة بين سطور الزمن وحكايات العابرين.. إلى من أحبّوا الحياة، وعاشوا تفاصيلها المنسية بكل انكساراتها وانتصاراتها.أهديكم جميعاً ثمرة قلقي وشغفي، ومجموعتي القصصية هذه.. لتكون مرآةً لقلوبكم، وصدىً دافئاً لخطواتكم في دروب الحياة.

تصدير

«بين طيّات هذا الكتاب، لا تجلس حكاياتٌ منسوجةٌ من محضِ الخيال، بل أرواحٌ حقيقية عبرت دهاليز العتمة وهي تبحثُ عن وميض ضوءٍ ضائع. هنا.. في هذه المحطات المتشابكة، ستلتقي بالذين صمتوا طويلاً حتى تكلم قلقهم، والذين واجهوا أرشيفهم الأسود وعادوا منسحبين من مسرح الحياة، لا رغبةً في الموت، بل بحثاً عن فرصةٍ لإعادة اكتشاف أنفسهم من جديد.

بين قصةٍ وأخرى، ستعبر تحت ظلال السنديان، وتقف مع حراس الكلمات و الرمال الذين يحملون أثقالاً لا تراها الأعين، وتقرأ رسائل مخبأة، وتوقيعاتٍ كتبت بمداد الروح لتكون هي الأخيرة. إنها رحلة النبش في تلك الزوايا المنسية من الذاكرة الإنسانية؛ حيث الخطايا السبع تشتبك مع براءة الوعود، وحيث يلتفت المرء في لحظة صدقٍ مباغتة ليقول: "لقد أحببتُ الحياة.. ولكن متأخراً".

هذه السطور ليست مجرد نصوصٍ تقرأ، بل هي مرآة مشروخة لكل من تعثّر في منتصف الطريق، ولكل من تلمّس تفاصيل حياته متأخراً واكتشف أن الهزيمة الحقيقية هي ألا نترك خلفنا أثراً. افتح الباب، وأنصت لخطوات العابرين، فربما تجد خلف أحد هذه الأبواب.. قصة تشبهك.»

رقم	الفهرس	رقم الصفحة
1	أحببت الحياة متأخراً	6
2	رسالة إلى ابني	13
3	حارس رمال	17
4	صمت زيتون	27
5	الأرشيف الأسود	34
6	حارس كلمة	49
7	بين شجرتين	57
8	من تحت الرماد	69
9	القدر	72
10	تحت شجرة السنديان	78
11	خطايا السبع	88
12	طبيب روحه	99
13	فلسفة الشطرنج	109
14	أمي	112
15	التوقيع الأخير	117
16	كاتب باجة سيرة ذاتية	137

قصة: أحببت الحياة متأخرا

كانت الشقة تفوح منها راحة غريبة كأنها راحة بارود و جثث مرى عليها سنين و في منتصف الغرفة، جلس "آدم" وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، رجل بملامح ذابلة وعينين انطفأ بريقهما منذ زمن بعيد. بالنسبة للجيران، كان آدم مجرد جسد يتحرك بآلية؛ رجل بلا أصدقاء، بلا عائلة تسأل عنه، وبلا طموح يدفعه للاستيقاظ صباحاً. يظنونه كسولاً زاهداً في الدنيا، لكن أحداً لم يدرك أن خلف هذا السكون جثة معنوية، وروحاً أنهكتها الصدمات المتتالية حتى فضلت الانسحاب الكامل من مسرح الحياة لكي لا تتألم مجدداً.

كان يجلس أمام طاولة خشبية متهالكة، يحدق في رقعة شطرنج قديمة ورثها عن جده، يوزع القطع العاجية السوداء والبيضاء ببطء، كأنه يلعب ضد الفراغ.

وفجأة، تجمد الهواء في الغرفة. انطفأت الشمعة الوحيدة، وحلّ محله برد قارص اخترق العظام، وتكثفت الظلال في الزاوية المقابلة لتتشكل على هيئة رداء أسود طويل لا قرار لأعماقه. خرج منه كف شاحب كالثلج، وصوت هامس كحفيف أوراق خريفية ميتة:

"آدم... لقد انتهت صفحات كتابك. أنا ملك الموت، وجئت لأقبض روحاً لم تعد تتمسك بالجسد."

توقع الزائر المهيب أن يرى الرعب في عيني الرجل، أن يسمع توسلات أو

صرخات ندم. لكن آدم لم يتحرك من مقعده. نظر إلى الكائن الشاحب، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، مليئة بالمرارة والتحدي، وقال بنبرة هادئة أدهشت ملك الموت:

"إذا كانت حياتي قد انتهت فعلاً ولم يعد لي فيها نصيب، فما رأيك في مباراة شطرنج أخيرة؟ إن فزتَ أنت، تأخذ روحي دون مقاومة، وإن فزتُ أنا... أحصل على فرصة أخرى، فرصة واحدة لأرى ما وراء هذا الظلام."

ساد صمت ثقيل. كانت الروح الإنسانية في العادة تستسلم أو تنهار، لكن جرأة هذا الرجل المكسور أثارت فضول الكائن الأزلي. تحرك الظل، وجلس على المقعد المقابل لآدم. امتدت الأصابع الشاحبة لتلمس القطع السوداء، بينما استقرت يد آدم على القطع البيضاء. قال ملك الموت: "لك ما أردت.. النقلة الأ ولى لك."

مد آدم يده المرتجفة، وحرك العسكري الأبيض خطوتين للأمام (e4).

وفي اللحظة التي استقرت فيها القطعة على المربع الجديد، تلاشت جدران الغرفة فجأة. شعر آدم برائحة ياسمين دافئة، وسمع صوت ضحكات طفولية بريئة. رأى نفسه طفلاً في السابعة من عمره، يركض في حديقة واسعة ممسكاً بيد والدته التي كانت تبتسم له بعينين تشعان حناناً. كانت تلك سنواته السعيدة، الحقبة الوحيدة التي كان العالم فيها مكاناً آمناً، قبل أن يختطفها الموت ذات ليلة باردة ويترك الطفل وحيداً في مواجهة الصقيع. تنهد آدم، وعادت الغرفة لتتشكل، بينما تقدم ملك الموت بنقلة مقابلة (e5)، كأنه يذكره بأن كل بداية سعيدة تعقبها نهاية.

رد آدم بنقلة ثانية، محركاً الحصان الأبيض (Nf3). مع هذه النقلة، التفت الرقعة لتكشف عن ذكرى أخرى، ذكرى من بستان طفولته المذبوحة. رأى ممرات مدرسته القديمة، ورأى نفسه صبياً نحيلاً منزوياً في زاوية الساحة، بينما يلتف حوله زملائه، يتقاذفون كتبه ويسخرون من ملابسه البسيطة ومن حزنه الدائم على أمه. شعر بذات الغصة التي خنقت حنجرته قديماً، بذات العجز الذي علمه لأول مرة أن الانكماش هو الوسيلة الوحيدة لتفادي الضربات.

أخذ ملك الموت عسكرياً من عساكر آدم بقطعة من قطعه المظلمة. ومع سقوط القطعة البيضاء خارج الرقعة، شعر آدم بنغزة حادة في صدره، كأن جزءاً من روحه قد انتُزع. كانت تلك القطعة تمثل حلمه الضائع. تذكر حين كان في العشرين، تذكر الأوراق التي ملأها بخط يده، القصص والرسومات التي كان يظن أنها ستغير العالم، وكيف ألقى بها في سلة المهملات ذات يوم بعد أن أخبره الجميع أن فنه بلا قيمة، وأن عليه أن يبحث عن عمل حقيقي يقتات منه. لقد تخلص من حلمه ليعيش، والآن يرى ذلك الحلم يسقط كقطعة خشبية ميتة.

لم يتوقف ملك الموت عن اللعب، ولم يمنح آدم وقتاً للاستغراق في الندم. كانت الأصابع الشاحبة تتحرك بدقة صارمة، مجبرةً البطل على الاستمرار في مواجهة تضاريس ماضيه.

حرك آدم الفيل الأبيض خطوتين (Bc4). وبمجرد أن استقر الفيل على المربع الجديد، اهتزت الرقعة، وامتلأ فضاء الغرفة المظلمة بنور دافئ كأنه ضوء شمس الأصيل. شمّ آدم رائحة عطر مألوف، وانقبض قلبه؛ رأى نفسه شاباً في

الخامسة والعشرين، واقفاً تحت المطر وممسكاً بيد الفتاة الوحيدة التي نبض قلبه لأجلها. تذكر كيف كانت تنظر إليه بأمل، وكيف كان هو ينظر إلى الأرض عاجزاً عن التمسك بها، مكبلاً بخوفه من الفقر وفشله المتراكم. رأى مشهد الفراق، وكيف أفلتت يدها ببطء لتختفي وسط الزحام، تاركةً إياه وحيداً مع يقين قاتل بأنه لا يستحق الحب.

قال ملك الموت وهو يحرك وزيره الأسود محاصراً جناح الملك الأبيض (Qh4): "لقد تركتَ كل من أحبوك يرحلون يا آدم.. ظننت أنك تحمي نفسك من ألم الفراق، لكنك كنت تدفن نفسك حياً."

شعر آدم بالاختناق، لكنه تحامل وحرك عسكرياً آخر لحماية ملكه (g3). ومع هذه النقلة، برزت ملامح ذكرى مشوهة بالغدر. رأى وجه صديقه الوحيد، الشخص الذي ائتمنه على ما تبقى من طموحه وسرّب له فكرة مشروع عمرا خططا له معاً، وكيف استيقظ آدم ذات صباح ليجد صديقه قد سرق الفكرة، ونسب النجاح لنفسه، وأنكر معرفته به أمام الجميع. تذكر آدم كيف كانت تلك الطعنة هي القشة التي قصمت ظهر ثقته بالبشر، اللحظة التي قرر فيها إغلاق باب شقته على نفسه إلى الأبد.

توالت النقلات، وبدأت قطع آدم البيضاء تتساقط واحدة تلو الأخرى؛ سقط الحصان، ثم الفيل، ثم القلعة. ومع كل قطعة كانت تُسحب من الرقعة، كان آدم يشعر بجزء من روحه يُنزع منه بعنف، لكن المفارقة كانت عجيبة.. فمع كل خسارة لقطعة، ومع كل مواجهة لذكرى مؤلمة مدفونة، كان عقله يبدأ بالا ستيقاظ من غيبوبته.

لقد أدرك الآن، وهو يرى القطع تتناثر، أنه لم يكن رجلاً بليداً أو بلا أهداف كما

ظن الجميع؛ بل كان شخصاً أحب العالم بعمق، وشخصاً كان يملك أحلاماً شاهقة، لكن الخسارات المتتالية والمتلاحقة، من موت أمه إلى تنمر أقرانه، ومن ضياع حلمه إلى خيانة صديقه، كانت أثقل من أن يتحملها قلبه، فأقنع نفسه بالانسحاب. لقد كذب على نفسه طوال سنين حين قال إنه "لا يهتم"، بينما كان في الحقيقة يتألم حتى النخاع.

اكتسح ملك الموت الصفوف الأمامية لآدم، وبات الملك الأبيض محاصراً في زاوية الرقعة. وفي تلك اللحظة، حرك آدم وزيره الأبيض في محاولة يائسة وأخيرة (Qf3).

مع هذه النقلة الأخيرة، ساد صمت مرعب. رأى آدم نفسه قبل ثلاث سنوات بـ الضبط، واقفاً في منتصف الليل على حافة جسر مرتفع، والماء الأسود يغلي من تحته. تذكر برودة الحديد تحت كفيه، وكيف كان على بعد شعرة واحدة من إلقاء جسده لينهي هذا العذاب، لكن صوتاً خفياً في أعماقه جعله يتراجع في اللحظة الأخيرة، ليعود إلى شقته ويعيش كشبح.

بدأ آدم يتنفس بسرعة، وشعر بحرارة لم يعرفها منذ سنوات تسري في عروق الباردة. نظر إلى ملك الموت، ولم يكن في عينيه ذلك الخمول المستسلم، بل بزغ فيهما بريق غريب.. بريق رغبة حقيقية وجارفة في الحياة.

التفت آدم إلى الكائن الظلماني، وقال بصوت متحشرج مشوب بالدهشة:

"الغريب.. والغريب جداً يا ملك الموت.. أنني لم أشعر برغبة حقيقية في الحياة، ولم أدرك كم هي ثمينة، إلا عندما جئتَ أنت لتخبرني أنها انتهت!"

ابتسم ملك الموت ابتسامة غامضة، ومد يده الشاحبة ليوجه نقلة قاتلة بالرخ

الأسود، واضعاً ملك آدم في وضعية لا مفر منها. استقرت قطعة الرخ الأسود على المربع الحاسم بدويّ خفي، أحدث اهتزازاً في أركان الطاولة المتهالكة. تطلّع آدم إلى الرقعة، وحبس أنفاسه وهو يحلل الوضعية؛ لقد كانت اللوحة أمامه أشبه بساحة معركة خربتها الحروب. عساكره متناثرة، قلاعه مهدمة، وملك الأمل الأبيض محاصر في المربع الأخير، تحيط به ظلال القطع السوداء من كل جانب.

لقد وصل إلى وضعية خاسرة تماماً. وضعية لا يمكن إنقاذها، ولا توجد أي نقلة في هذا الكون يمكن أن تمنحه النصر أو تؤجل النهاية. عرف آدم، بيقين لا شائبة فيه، أنه خسر المباراة.

لكن، للمرة الأولى منذ سنوات طوال، لم يشعر آدم بتلك الغصة القاتلة أو بالا نكسار الذي كان يدفعه للانزواء. على العكس تماماً، شعر فجأة بخفة عجيبة تسري في صدره، كأن قيداً فولاذياً ثقيلاً كان يطوق أنفاسه قد انكسر وتبخر في الهواء.

نظر إلى يديه المرتجفتين، ثم إلى رقعة الشطرنج، وأدرك المعجزة التي حدثت الليلة: لقد واجه كل الذكريات التي كان يهرب منها طوال حياته. واجه حزنه القديم على والدته، غضبه المكتوم من تنمر أصدقائه، ندمه على أحلامه الفنية المنسية، ومرارة الخيانة والفراق. لم يعد يختبئ وراء قناع "البلادة" و "اللامبالاة".

التفت آدم إلى نفسه، واعترف في أعماقه بأنه كان يتألم، وأنه كان بشراً نابضاً بالمشاعر والأحاسيس، وليس كائناً عديم الأثر كما أقنع نفسه لسنوات في سجنه الاختياري.

تحرك الظل الأسود المقابل له ببطء، وارتفع الرداء ليكشف عن هيبة ملك الموت التي تملأ الغرفة. امتدت اليد الشاحبة كالثلج نحو الرقعة، وقبل أن يلمس الملك الأبيض ليعلن نهاية اللعبة وقبض الروح، توقف الكائن الأزلي قليلاً. نظر إلى وجه آدم، وتفرس في ملامحه المستقيمة، ثم سأله بصوته الهامس الذي يشبه حفيف أوراق الخريف:

"لقد خسرتَ المباراة يا آدم، وباتت روحك ملكاً لي.. أخبرني، هل ندمت لأنك خسرت؟"

نظر آدم إلى عيني ملك الموت بلا خوف ولا وجل، وارتسمت على شفتيه ابتسامة صافية، ابتسامة نقية ودافئة لم يعرفها وجهه منذ طفولته البعيدة، وأجابه بنبرة صوت ممتلئة بالسلام والتصالح: "لا... لم أندم لأنني خسرت المباراة. ندمتُ فقط لأنني انتظرتُ حتى آخر ليلة في حياتي لأتصالح مع نفسي، ولأفهم كم كنت أحب هذه الحياة."ومع آخر كلمة نطق بها، اتسعت ابتسامته، وأغمض عينيه برفق.

قصة: رسالة لي ابني

بدأ الضوء الرمادي البارد يتسلل من شقوق النافذة الخشبية لغرفة النوم. استيقظ "أبو يعقوب" بجسد ثقيل، كأن جبالاً من السنين تجلس فوق صدره. شعر في تلك اللحظة بالذات، بنوع من اليقين الغريب الذي لا يخطئه حدس الشيوخ: هذا هو اليوم الأخير.

لم يكن خائفاً، لكن فكرة واحدة هاجمت عقله كصاعقة أيقظت فيه رغبة عارمة في النهوض: الرسالة.

تلك الرسالة التي كتبها قبل أربعين عاماً، ليلة الخلاف الكبير مع ابنه، عندما انهمر حبر قلمه بقسوة لم يعرفها في حياته من قبل. هو يتذكر ملامحه في المرآة تلك الليلة، ويتذكر الكلمات التي تقطر عتباً جارحاً وكبرياءً جريحاً، ويتذكر أنه خبأها في مكان ما في هذا البيت... لكن أين؟

وقف على قدميه المرتجفتين، وسند يده على الحائط البارد. نظر حوله في الغرفة الصامتة...

توجّهت خطواته المرتجفة أولاً نحو الكومودينو الخشبي القديم القابع بجانب الفراش. هذا الأثاث الذي شهد معه عقوداً من النوم والاستيقاظ، وامتصّت أخشابه أنفاس زوجته الراحلة "أم يعقوب" لسنوات طويلة.

جلس على حافة الفراش، وأصدر السرير صريراً مألوفاً بدا هذه المرة وكأنه يودعه. امتدت يده ذات العروق البارزة والجلد الرقيق نحو المقبض النحاسي

للدرج العلوي. سحبه ببطء، ففاحت منه رائحة عتيقة مخزونة؛ مزيج من ورق قديم، وبقايا بخور جاف، ورائحة دواء "الفيكس" الذي كان يدهن به صدره في ليالي الشتاء.

لم يجد الرسالة في الأعلى. غاصت أصابعه في عمق الدرج لتبحث بين الأ شياء المتروكة:

مسبحة من عقيق أسود، انفرطت بعض حباتها وضاعت في الزوايا.

ساعة يد قديمة توقفت عقاربها عند العاشرة وعشر دقائق منذ سنوات، ولم يعد يهتم بإصلاحها.

وفي الزاوية البعيدة، تلمست أصابعه علبة مخملية صغيرة.

أخرج العلبة وفتحها. لم تكن الرسالة، بل كانت قسيمة زواجهما وبجوارها دبلة فضية رفيعة تخص زوجته الراحلة.

تسمرّت عيناه على الدبلة. تذكر يوم الخلاف الكبير قبل أربعين سنة، حين انقسم البيت إلى معسكرين: هو بكبريائه الصارم وصوته الجهوري الذي لا يقبل النقاش، وابنه الشاب الذي كان يرى في أبيه سداً يمنعه من التنفس، و "أم يعقوب" الواقفة في المنتصف، تعتصر يدها حول هذه الدبلة بالذات، وتنظر إليه بعينين باكيتين وتترجاه: "إنه ابنك، لحمك ودمك، لا تكتب ب الدموع ما لن تمحوه السنون".

لكنه لم يستمع إليها يومها. دخل مكتبه، وأغلق الباب، وكتب تلك الرسالة وهو يرتجف غضباً.

أغلق "أبو يعقوب" العلبة المخملية بقبضة مرتعشة، ووضعها على سطح

الكومودينو. نظر إلى أطراف الغرفة، فبدت له الظلال وكأنها تتحرك مع شروق الشمس الباهت. مسح دمعة جافة حفرت مجراها في تجاعيد خده، وهمس لنفسه بصوت مبحوح: "أين خبأتكِ أيتها اللعنة؟ هل كنتُ أريد حمايته منكِ أم كنتُ أحتفظ بكِ كسلاح؟".

وقف مجدداً، مستنداً على عصاه. الضوء الرمادي بدأ يتحول إلى خيوط صفراء دافئة تضرب الصالة الخارجية.

سقطت العصا من يده فجأة، لتحدث صوتاً مدوياً كسر صمت البيت القاتل. لم يعد في جسده متسعٌ لخطوة أخرى، ولا في أنفاسه المتقطعة مساحة لدرج جديد.

تراجع بخطوات ثقيلة ومشتتة إلى الخلف، حتى هوى على مقعده الهزاز القديم في زاوية الصالة. استند برأسه المتعب إلى مسند المقعد، وكانت خيوط الشمس الذهبية قد بدأت تغمر المكان، كأنها تضيء المسرح لآخر مشهد.

نظر إلى يده المرتجفة المعلقة في الهواء، ثم أدار عينه نحو أرجاء البيت؛ نحو الكومودينو المفتوح، وباب المكتب الموارب، وصور الراحلين المعلقة على الجدران. في تلك اللحظة بالذات، انقشع الضباب عن عقله، وتوقف الصراع الذي طحنه طوال الصباح.

لم يعد بحاجة لفتح أي درج آخر. لقد أدرك الحقيقة كاملة في خفقات قلبه الأ خيرة.

السؤال الذي عذبه طوال السنين لم يكن أين وضع الرسالة، بل ماذا كان يريد

منها؟ والآن، وهو يقف على الحافة بين أربعين سنة مضت وأبدية تقترب، علم الإجابة: لم يكن يبحث عنها ليرسلها أو ليعيد إشعال حرب قديمة، بل كان يبحث عنها ليمزقها، ليحرقها، ليمحو من الوجود آخر دليل على أنه في لحظة ما من حياته، سمح للكبرياء أن يكون أقوى من حبه لابنه.

أغمض "أبو يعقوب" عينيه ببطء، وارتخت يده لتستقر على فخذه. انسابت من عينيه دمعة أخيرة، حارة وصافية، غسلت كل ما تبقى من عتب وغضب. شعر بروحه تخف، وتتحرر من ثقل البيت وأدراجه ورسائله المفقودة.

ومع آخر شعاع للشمس يغادر الغرفة، هدأ المقعد الهزاز تماماً، تاركاً خلفه بيتاً يملؤه الصمت، ورسالة ضائعة لم يعد لها أي قيمة... لأن الحب انتصر في النهاية، حتى لو جاء الانتصار مع النفس الأخير

قصة: حارس رمال

بين الجبال العالية ورمالها الساحرة صحراء تخفي في باطنها اسرارا وتصنع ا لاقدار وقد تجلت على عاتق شاب وسيم يميل إلى السمرة تميز بقوة هائلة وذكاء حاد يحمل بداخله اسرار تكشفت له وهو نائم فكان يتمتم هل هي اضغاث احلام ام اقدار تنتظره فكان لا يكترث الي تلك الاحلام كثيرا .الا انه كان يتابع نظرات الام وهي تنظر اليه برفق وتلامس خصلات شعره وتتمتم بصوت مبوح كنت تشبه اباك كثيرا عيناه الزرقاوين شعره الناعم قوته فهل ايضا تشبه قدره انتبه الي تلك الكلمات وردد بفضول اي قدرا تتكلمين ,ا رتبكت الام وشعرت ان لسانها خانها فقالت بلسان متلعثم لا شيء لقد تأخر الوقت وعلي الذهاب لجمع الاعشاب الطبية فقد القت نظرة عابرة علي الا عشاب المتبقية التي توضع علي صندوق خشبي قديم مكتوب عليه كلمات تشبه الطلاسم فرددت في خوف وزاغ بصرها اقتربت الاعشاب من النفاذ وقبل ان يسمع جوابا يهدي قلبه كان طيف الام اختفي القي نظرة الي الصندوق واقترب بهدوء وازاح الاعشاب الطبية وقد لحت بداخله الافكار وظلت تضغط عليه اين تختفي تلك الاعشاب انها لا تجف بل تختفي ولماذا توضع علي الصندوق ولماذا الام كلما اخبرها بالذهاب معها كان ردها قاطع لا. لم يحن دورك الان بدأت تضغط عليه احلام اليقظة الذئب ذو الرأسين الذي يهاجمه في احلامه يمنعه من نومه تذكر القلادة التي في الصندوق تلك هي تمتم نعم هي التي كانت تخيفه وما إن مد يده نحو صندوق حتي إن فتح

فجأة قبل ان يلمسه حتى وخرجت منه انوار فضية لامعة .انها القلادة .مد يده بلطف يتحسسها وقد قربها نحوه يتأملها بهدوء فسمع كلمات غريبه لا يستطيع فهمها فوضعها علي رقبته فتلألأت في زاوية الخيمة قوسا فضيا وسهما ازرق في تلك اللحظة قرر التخلي عن قوسه القديم و ان اليوم عليه الصيد بهذا القوس انطلق بخط ثابته ينتقل بين الجبل .لاح عن بعد غزالة جميلة تأكل الاعشاب شد القوس وقبل ان يترك السهم لمح ذئبا ذو رائسين تمتم يا الاهي انه يشبه الذي اراه في احلامي .انتبه إلى الذئب وهو يركض نحو الغزالة .تركت الغزالة العشب واصابها الخوف وقفت مكانها فقد كبلها الخوف وقبل ان ينقض عليها الذئب تحولت في لمح البصر إلى فتاة جميلة و في نفس اللحظة أنطلق السهم نحو الذئب اصابه في كتفه القي الذئب اليه نظرة كأنه يتوعده واختفي بين الجبال بينما القت اليه الفتاة ابتسامة هادئة وتحولت غزالة مرة أخرى وانطلقت في الجهة الأخرى .فرك "امغار " عينية وهو يتمتم انه ليس حلما انه الذئب البشع الذي اراه في احلامي وتلك الفتاه هي التي اراها جالسة علي العرش وقبل ان يفيق من دهشته لمح السهم مشدودا في القوس مرة أخرى وقبل ان يبتعد كثيرا ترامى الي مسامعه صوت عواء ألقى سمعه هل هي اصوات ذئاب علي ان انتبه وقد خرج ذئب من خلف الجبل يقطع طريقة وعيناه تتوعد واخرج الذئب عواء كأنه ينادي علي احد و فجأة اصطف بجواره ذئبين اخرين .؟

لمع القوس في قبضة " امغار" كأنه ينبهه انه ليس وحيدا. شد السهم وصوبه نحو أحدهم. كان السهم يعلم طريقه جيدا تفرق إلى ثلاثة أسهم ليصيب الذئاب الثلاثة ثم يعود إلى القوس مرة اخرى بدئت الشمس على المغيب عليه الرجوع لعل يجد جوابا من الام التي تلوح في عينيها اسئلة كثيرة وما

ان وصل إلى الخيمة لم يجد الام ادار بصره في كل اتجاه لعل يلمح طيفاها او اي أثر يدل على مكانها. جلس على حافة البئر وكان يكرر ان كل ما شهدته اليوم كان حقيقيا وان الاحلام التي كنت اراها كانت تنبهني نحو الواقع الذي سأعيش بداخله وان اسرارا قد تجلت امام عيني اليوم. الذئب والفتاه الجميلة والقوس والقلادة هذا هو الحاضر الذي فرض علي ثم نظر إلى البئر وردد كيف يكون هذا البئر تحت حافة الجبل وكيف ينبع الماء بداخله ولم يجف جلس على الارض ووضع القوس بجانبه وألقى نظرة بعيدة في كل اتجاه لعل يلمح طيف الام حتى حمله التعب والنوم. في الصباح الباكر استطاعت اشعة الشمس ان توقظه من نومه العميق. كان " امغار" يكره الصمت الذي يعقب العواصف الرملية. لأنه الصمت الذي يسبق الاخبار السيئة وقف امام خيمته المنصوبة في حضن الوادي ينظر إلى الافق باحثا عن خيال امه " ديهيا" بدء يدب القلق بداخله منذ ان خرجت تجمع الاعشاب لم تعد الي الان ما أدهشه حقا انها لم تخبره عن طريق تلك الاعشاب بدء يلمح ضوء خافت يخرج من القلادة بداء يتفحصها كأنه يراها لأول مرة بدت وكأنها عليها رموز متداخلة تبدو كأنها تتحرك إذا أطال النظر اليها.

لا تطل النظر إلى السر فالعين قد تصل والطريق طويل هكذا قالها الشيخ " اكلي" وهو يقترب بخطواته الوطيدة. كان صديق والده الراحل رجل غامض وجهه محفور بالتجاعيد كأنه قطعة من أرض عطشى ردد "امغار" بقلق امي خرجت منذ الأمس لجمع الاعشاب ولم تأتي إلى الان يبدو انها تائهة ويجب ان اجدها .هز الشيخ رأسه وقال ببرود مرعب أمك ليست تائهة .فتلون وجه " أمغار" وظهر عليه الدهشة فواصل الشيخ كلامه لقد ذهبت لتؤدي أمانة قديمة وتلك القلادة التي على رقبتك هي تذكرتك للحاق بها أو ستكون هلا

اكك. سكت "امغار" و هو يفكر في دهشة فقد بدا كل ما حوله غير منطقي وخاصة عندما لمح الناقة واقفة وقد تعودت الام إلى اصطحابها معها عندما تريد جمع الاعشاب حملق في وجه الشيخ "اكيلي" مرددا بنفاد الصبر هل لديك جوابا لكل تلك الألغاز التي تحدث معي ؟.,تنهد الشيخ وأدار وجهه بعيدا ثم ثبت عينيه نحوه و قال" انها قصة طويلة سأخبرك بكل شيء " و فجأة سمعا صوتا قويا يخرج من الصندوق و كأنالاعشاب الطبية اقتربت من النفاذ فردد الشيخ "اكيلي "ليس لدينا وقت عليك إحضار سيف الحكمة أو سينتهي كل شيء فردد "أمغار" واين يوجد هذا السيف ,أشار الشيخ "اكيلي "عليك ان تلقي نفسك بداخل البئر هو الممر الوحيد الذي سيوصلك إليه .لم يتردد "امغار" لحظة حمل القوس في يده ووقف علي حافة البئر فترامى اليه صوت الشيخ في قلق لا تسفك الدماء وأحرص علي القلادة هي ستحميك .

في شجاعة ألقى " أمغار" نفسه في البئر يسبح بين طيات المياه إلى الأسفل حتى وجد نفسه يسبح في جدول كبير يحيط به بستان عجيب تحرسه القردة وقد أصدر القائد صوتا عجيبا فوضعوا على أعينهم عصابة وألقوا نحو " أمغار" فروع الأشجار والحجارة أسرع " أمغار" يتنقل بين أفرع الاشجار كأنه قرد أصيل يتجه نحو السيف الذي يوجد حوله هالة من نور.

مازالت القردة تلاحقه إلى أن هوى في النهر وما إن وصل إلى الشاطئ الاخر من النهر وجد غوريلا عملاقة تضربه بقوة تطيحه أرضا فأصرّ وشد وتر القوس وقبل أن يفلته تذكر كلمات " اكيلي" دون دماء فأسرع نحو صولجان وأشعل بداخله النار تراجع الجميع من الخوف ثم سمع صوت صراخ القردة الصغيرة ستقع في البركان متعلقة بفرع شجرة يكاد أن يسقط.

ربط " أمغار" وسطه بحبل وهوى إلى الاسفل وأخرج القردة فقدمت نحوه الغوريلا تضم أولاده بلطف وهي تنظر اليه بامتنان. صوت فرح ملاء المكان وما إن لمس السيف وجد نفسه في الخارج، انتبه الي الشيخ " اكيلي" وهو يصارع وحشا ذو عين واحدة صاح الشيخ " اكيلي" في لهفه وهو يمد يده نحوه أعطني السيف وما إن لمس السيف غرزه في قلب الوحش وقال "هيا سنغادر الان لم يتبقى لدينا وقت "

اعتلى الشيخ و " أمغار" ظهر الناقة وانطلقت نحو الوادي كأنها تعلم الطريق جيدا كان " أمغار" مذهولا من جمال الطبيعة الخلابة فردد يعاتب الشيخ كم هي جميلة وخلابة تلك الطبيعة لما لم تخبرني عن هذا المكان ؟ ولماذا لم تخبرني عنك ؟ وأين امي؟ اسئلة كثيرة يجب أن اعلمها تنهد الشيخ " اكيلي " يريد ان يلقي الأحمال الثقيلة عن كاهله.

نزل على الناقة يتبعه " أمغار" الى أن جلسا على جانب النهر تفحص وجه" أمغار" جيدا وقال تشبه كثيرا والدك كان عنيدا ايضا وقوي لكن القوى وحدها لم تجدي نفعا ما ينتظرك خارج حدود المنطق والخيال أنها مدينة الاحلام لم يستطع أحد أن يخرج منها غير والدك وأبنتي وهي أمك أنتبه " امغار" امي ماذا تقول"؟ أليست " ديهيا " امي سكت الشيخ " اكيلي " برهة وقال من قامت بتربيتك ليست أمك إنما هي الخادمة. أمك حقيقة ابنة ملك الجان ا بنتي فردد " أمغار" في تعجب انت جدي؟ ردد الشيخ في هدوء نعم انا جدك كنت احرسك تلك السنوات عن بعد ردد"أمغار" وأين ابي وامي ردد بصوت مبحوح في السجن التعذيب و كيف دخلا السجن ؟ وكيف انت هنا؟ وانت ملك الجان .لقد كان والدك باحثا في الاثار كان يتجول بين تلك الطبيعة الخلا

ابة وكانت ابنتي تتنزه هنا جمع بينهم القدر في قصة حب تزوجها دون علم أ حد. تشجعت ابنتي وجاء معها إلى عالمنا كانت تعلم ان حبي لها سيحميها من اي عقاب اشتعلت نار الحقد في قلب " تاهان" ابن عمها فبدا في تأليب الجان عليا لكن قوتي تمنع اي أحد أن يؤذيني .كان سيف الحكمة في يدي وقد وضعت ابنتي طفلا جميلا استطاع ان يمحي الغضب بداخلي. نعم انه انت اصابني القلق. العيون اتجهت نحوك علمت انهم يريدون قتلك كان عليا أ ن أبعدك من امام عيون الغدر والقلوب الضالة اقنعت والدك أن تركب سفينة النجاة وتبتعد عن عالمنا ارسلتك مع وصيفة الام ترعاك احطها بتعويذه كي لا يستطيع أحد ان يصل اليك ووضعت القلادة في الصندوق لتكون تذكرة دخولك مدينة الاحلام مرة أخرى. في ذات يوم أخبرني والدك انه يريد رؤيتك وألحت أمك ايضا. كنت أعلم ان الحيطان لها أذان تسمع جيدا وعيون الخيانة لمعت امامي دون خجل ايقنت أن امرا سوف يحدث. كانت الاوامر بفك طلاسم القوى التي تحمي المدينة وخرج والدك ولم يمضي وقت كثير حتي ذيع الخبر ان والدك سرق حجر الطاقة واتجهت اصابع الاتهام نحوي انا و من امر بخروجه مع ان الاوامر صارمة ممنوع خروج البشر ووقعت في شبا ك لم أستطع الخروج منه و حكمت المحكمة بأن سيف الحكمة يسحب مني و يعود إلى مكانه بكهف التوت الى أن يعود الانسي ومعه حجر الطاقة .كان عليا المجازفة فقط كانت قوتي تتهاوي فقوتي استمدها من السيف وما ان خرجت جلس "تاهان" علي العرش وامر بحبس ابنتي في كهف الغول ,في لمح البصر طويت المسافات ووصلت اليك لم اجد والدك كان قد عاد مرة اخر ى لمدينة الاحلام عدت ادراجي مسرعا كان الوقت قد نفذ استولى" تاهان" على العرش وأمر بحبس كل اصدقائي ومعاونين هكذا اخبروني من خلف الا

ابواب .هذه قصتي التي تريد ان تعلمها تنهد "امغار" وقال هل يوجد لديك حل ردد الشيخ في امتعاض حلا واحدا فقط حجر الطاقة لابد ان يعود حتي تعود الطلاسم وتعود قوتي مرة اخرى ,غاص "أمغار" بداخله لحظة وقال ما رايك لو كنت مكان ابي فأين كنت ستخفي حجر الطاقة. نظر الشيخ إلى الأ على برهة ثم ادار وجهه نحو"امغار" قائلا انت لم تعلم ابيك انه شخص شديد الذكاء متعلم ومثقف درس علم الاثار جيدا وهو يعلم الكثير عن هذه المناطق علي الأرجح خبئه في مكان لا يخطر علي بال احد ., ردد" أمغار" ألم تلاحظ شي ؟,أيد الشيخ كلامه بإيجاب نعم أشعر بقوتي عندما احكم قبضتي علي سيف الحكمة متجها في اتجاه الشمال وقبل ان ينطق "أمغار" لمح سحابة غبار من الأتربة لم تكن قافلة بل لسيارة دفع رباعي حديثة نزلت منها فتاة شابة ترتدي ثياب مخصصة للرحلات تبدو غريبة تماما عن هذا المكان أنا "سارة" من العاصمة باحثة في الاثار قالت بلهجة واثقة وهي تمد يدها ,نظر "أمغار" إلى يدها ثم ألفت وجهه ولم يرد التحية كان قد همس لشيخ "أكيلي" في اذنه الغرباء في الصحراء يجلبون الموت او الطمع.

قالت سارة وهي تخرج جهازا " لوجيا " نحن نتبع إشارات لمكان أثري تحت هذه الرمال أساطيركم تقول إنها مدينة الذهب والعلم يقول انها مدينة مفقودة من عصر ما قبل التاريخ أحتاج دليلا يعرف مسالك الوديان.

ألقي الشيخ نظرة الى "أمغار" نظرة لها مغزى ثم ثبت عينيه نحو الفتاة اخرجي من تلك الارض حتي لا تكون قبرك أنت ومن معك ,رددت الفتاة في ثبات لم أقطع كل تلك المسافات كي ارجع ان كان قبري هنا فأنا موافقة لكني اعدك سيسجل التاريخ أسم فتاة صلبه لم تنحني امام التحديات وانها حاولت

كشف المجهول ,بعد هذا الكلام الذي سمعه "أمغار" قرر أنه سيذهب خاصة عندما شعر أن القلادة بدأت تسخن بشدة بطريقة لا تطاق ثم ربت علي كتف الشيخ و يقول هيا لعلهم يحرسون سر العائلة ,ركب الشيخ و "أمغار" الناقة بينما تتبعهم الفتاة كانت الرحلة شاقة والحرارة تذيب الصخر خلال الليالي الطويلة حول النار قرر "أمغار" أن يستريح الجميع لقد بداء العرق يسبح علي وجوههم لكن ما كان يزيدهم دهشة الناقة لم تشعر بتعب تلك الناقة التي يراها منذ نعومة أظافره فتمتم يبدو انها سر اللغز

بدأت سارة تتخلى عن غرورها العلمي وجلست بجوار "أمغار" تتطلع في وجه الوسيم وجسده القوي وملابسه البسيطة المهترئة فقالت من انت فردد في جفاء وما يعنيك انت فرددت بهدوء لا شيء من باب الفضول أرت أن أ عرف طباع أهل هذه الاراضي ولما تخفونها عن العالم لو اكتشفنا المدينة ستصبح هذه الاراضي أغنى مكان في افريقيا و من الممكن في العالم ردد "أ مغار" و هو ينظر إلى النجوم ليس كل الكنوز تقاس بالمال يا "سارة" هناك اشياء اذا خرجت للنور أحرقت الناس انت فتاة صغيرة تسعين إلى جني المال والشهرة لكن اعلمي جيدا يوجد اشياء فوق حدود المنطق لا يستطيع العقل استيعابه ,كان كلامه يزيد فضولها حتى ايقنت انه يعلم اشياء كثيرة عن الحقيقة وربما هو جزء منها فقالت بثبات انني اتيت لآجل هذا تنهد الشيخ ساخر ألم أقل لكي انكي أتيت الى هنا لنحت قبر لكي وقبل أن تجيب حدث ما لم يكن في الحسبان هجمت مجموعة من المرتزقة عليهم كانوا يبحثون عن القلادة ,أدرك "أمغار" ان "سارة" ليست الوحيدة التي تمتلك الخريطة وأن هناك من دفع لهؤلاء المرتزقة ليأخذوا القلادة ابتسم أحد المرتزقة ساخرا عندما رمق القلادة علي صدر "امغار" أشار الى احد رجاله أن

يجلبها له وهو موجه نحوه السلاح الناري ,كان "أمغار" حذرا فلقد نصب فخا من قبل تحسبا للمفاجأة نهض بحذر وقبل أن يمد رجل المرتزقة يده نحو السلسلة وضع "أمغار" يده علي الفخ فوقعت شجرة احدثت جلبة كبيرة جذبت الانتباه و لم يضع تلك الفرصة وبسرعة اخذ المسدس من الرجل وصوب نحوهم النار كانت فرصته للهرب اتجهوا نحو الرمال المتحركة التي لم يجرؤ احد دخولها و بعد المشي تحت ضوء القمر الكامل وصلوا الى فوهة بركان خامد هنا أخرج الشيخ اسيفة ووضعه علي الارض وصلى صلاة قديمة فبدأت الارض تهتز وانشقت الرمال لتكشف عن درج حجري يمتد الى باطن ا لارض صرخ الشيخ "اكيلي" اهبط الان عليك ان تواجه قدرك لقد اصابتك اللعنة انت ايضا عندما سرق ابوك حجر الطاقة وقبل أن يهبط "أمغار" لمع في عينيه الحجر من باطن الناقة في سرعة شق بطنها واخرجه وهبط بسرعة لم تتردد الفتاة وألقت نفسها خلفه وبالطبع الشيخ "اكيلي "لقد عادت اليه قوته لم تكن المدينة مبنية من ذهب كما توهمت سارة بل كانت مبنية من مادة غريبة تشع بضوء ازرق هادئ وقد كانت في ترقب تحث "أمغار" قدميه وسارة تمشي خلفه وهي تراقب "أمغار" وهو يشد القوس كانه ينتظر من يفاجئه سمع صوت قويا كأنه ينبهه حاذر يا ولدي انه خلف الجدار انه الغول ظهر بشكله المخيف بينما امه محبوست في قفص بداخل محراب وفي الجهة المقابلة كان الاب معلق بين عمودين وقبل ان يفلت "أمغار" السهم كان قد وقع في يد الغول وقبل أن يبتلعه الغول سمع صوتا قويا كأنها أصوات القردة وعندما نظر إليهم اخرج "أمغار" السهم وفقع عينه ترنح الغول حتى وقع في البركان أسرع أمغار ليخرج الامرأة التي ربطه من القفص بينما تولت سارة قيد الاب ,كان الجد اكيلي قد ذهب لمحاسبة الخائن "تاهان" وأخرج

جميع معاونيه من السجن ثم أسرع جميع نحو أرض النار لتحرير الأم فجأة بدأت الرمال تتحرك فقال الاب أمغار عليك ان تلقي القلادة وحجر الطاقة كي يعود كل شيء الى أصله لقد وصل الامر اليك يا ولدي الخيار لك الان القلادة وحجر الطاقة ممكن أن تفتح خزائن القوى للعالم لكن ستجعل البشر يدمرون بعضهم من أجلهم أو يمكن أن تغلق الأبواب وتنهي تاريخ عائلاتنا مع هذا العبء

(لقد قلت لكم كل شيء، أو على الأقل ظننت أنني قلت كل شيء. ولكن، يا قارئ، تذكر: ليس كل ما يحدث في هذه الصفحات يُختزل بين السطور. هناك خيارات لم تُتخذ بعد، وهناك أشياء تتنفس في الظل، تنتظر فقط من يجرؤ على الإمساك بها.

قد تتساءل الآن: ماذا حدث بعد ذلك؟ هل سيختار القوة أم الحكمة؟ وهل العالم سيصمد أمام أولئك الذين يسعون وراءها؟ الحقيقة... لا أعلم، ولا ينبغي لأحد أن يعلم.

القصة هنا تنتهي، لكنها ليست نهاية. فالقوة، كما تعرف، ليست شيئًا يُغلق في صندوق. إنها فكرة، احتمال، صدى... وربما أنت، أيها القارئ، من سيكمل ما بدأته هذه الصفحات).

تمت.

قصة: صمت زيتون

كانت فلسطين قبل العاصفة لوحةً من حياة هادئة. البيوت مبنية من الحجر ا لأبيض، والنوافذ مزينة بالأقواس الخشبية، والأبواب تُفتح كل صباح على شمسٍ لا تشبه أي شمس أخرى. في القرى، كان الفلاحون يخرجون مع الفجر، يحملون فؤوسهم على أكتافهم، وأصوات الديكة تختلط بأذان الفجر. الأرض خضراء ممتدة، أشجار الزيتون واقفة كجنودٍ يحرسون التاريخ، وأشجار البرتقال تعبق بالرائحة حتى إن المارّ في الطرقات يشعر أن قلبه امتلأ بـ السكينة. في القدس، كانت الأسواق تضج بالحركة: باعة التوابل يصرخون بأسمائها كأنها أناشيد، والخباز يخرج أرغفة ساخنة تغري الأطفال. الأزقة ضيقة، لكنها مليئة بالحياة. وعند الغروب، يتجمع الناس في المقاهي: بعضهم يلعب الطاولة، وآخرون يتحدثون عن موسم الزيتون أو العرس القادم في القرية المجاورة. الأعراس كانت فرحًا جماعيًا: النساء يزغردن من فوق الأ سطح، والرجال يرقصون الدبكة حول العريس. الأغاني الشعبية منتشرة في الليل: "عالروزنا..." و"ظريف الطول"، حتى يغدو الفرح ملكًا للجميع. الأطفال كانوا يجرون في الحقول، يقطفون الخوخ من البساتين ويهربون من صراخ أصحابها، ثم يضحكون بأصوات بريئة. لم يكن أحد يتخيل أن هذه الضحكات ستُسرق قريبًا، وأن البيوت التي تُفتح على الفرح ستُغلق على غربة طويلة. في ذلك الزمن، كانت فلسطين تنبض بالحياة... لم تكن تعرف أن في الأفق غيمًا أسود، وأن الغريب يخطط من بعيد لليوم الذي سيأتي فيه بالسلاح

ليقتلع الزيتون من جذوره، ويزرع مكانه غرباء لا يعرفون طعم التراب ولا رائحة البرتقال. لكن حتى في تلك اللحظة، كان التراب يُقسم: "هذه الأ رض لي... وستبقى لي، مهما طال الزمن." الليل في فلسطين كان هادئًا، لكن تلك الليلة لم تكن كسائر الليالي. الكل كان يسمع أصواتًا غريبة: قصفٌ بعيد يقترب، صرخات متقطعة، وهمسات في البيوت: "العدو يقترب... احزموا ما تستطيعون." في إحدى القرى الصغيرة، جلست أمّ على عتبة بيتها، تحمل مفتاحًا كبيرًا علّقته على صدرها. قالت لابنها: "احفظ هذا المفتاح يا بني، فسنعود بعد أيام قليلة، لن يغلب الحق." لكن الأيام لم تكن قليلة... والعودة لم تأتِ. الناس خرجوا من بيوتهم مسرعين، بعضهم لم يأخذ سوى قطعة خبز، وآخرون حملوا بطانية قديمة، أو صورة عائلية، أو حفنة تراب من الحديقة. الطريق إلى المجهول كان مليئًا بالدموع. على التلال، كانت البيوت تُحترق. جنود غرباء يزرعون الموت في كل زقاق. أصوات الرصاص تختلط ببكاء الأ طفال، والأرض التي كانت قبل أيام ميدانًا للفرح تحولت إلى ساحة رحيل. رجل مسن جلس تحت شجرة زيتون، رفض المغادرة. قال: "هنا وُلدت، وهنا سأموت." لكن النيران وصلت إليه قبل أن يصل صوت أبنائه. القرية اختفت في ساعات، وأهلها تفرّقوا على طرقات اللجوء. بعضهم سار نحو المخيمات في غزة والضفة، وبعضهم حمله البحر إلى لبنان وسوريا. الجميع كان يحمل صورة الوطن في عينيه، كأنها آخر ما تبقى من البيت. في الليل، نامت العائلا ت في العراء. البرد يلسع، والأرض قاسية، لكن الذاكرة كانت أدفأ من كل شيء. الأطفال سألوا أمهاتهم: "متى نرجع؟" وكان الجواب دائمًا: "غدًا... بعد غد... قريبًا جدًا." لكن الغد طال، وصار عمرًا كاملاً. مع الفجر، بدأت الخيام تنبت على أطراف المدن، لم تكن خيامًا للفرح ولا للاحتفال، بل خيامًا من

قماشٍ رقيقٍ يتهزهز مع كل ريح، كأنها تذكر أصحابها أنهم غرباء على أرضٍ ليست أرضهم. في المخيم، الأطفال يركضون حفاة، يلعبون بالعلب الفارغة كأنها سيارات، والأمهات يجلسن أمام الخيام يعدن قصص البيوت المفقودة، ليظلّ الأطفال يتذكرون أن لهم بيتًا أجمل ينتظرهم. رجل مسن كان يقول دائمًا: "هذه الخيمة ليست بيتًا... بيتنا هناك، وراء الأسلاك." ثم يرفع يده نحو فلسطين البعيدة. المدرسة كانت غرفة ضيقة من طين، المعلم يكتب على لوح أسود قديم، والأطفال يكتبون على دفاتر ممزقة. لكن الحلم كان أكبر من كل شيء: "سوف نتعلم... سنكبر... وسنرجع." الطعام قليل، الحصص تأتي من الأمم المتحدة: طحين، سكر، زيت. لكن المذاق لم يكن في الطعام، بل في الصبر. في الليل، كان المخيم يتحول إلى ذاكرة جماعية: كل عائلة تحكي حكايتها. واحدة تتحدث عن بئر الماء في قريتها، وأخرى تصف شجرة توت في حديقتها، وثالثة تبكي على قبر تركته خلفها. الخيمة لم تكن مجرد مأوى، كانت جرحًا مفتوحًا، وكانت أيضًا عهدًا صامتًا: أن هذه الأرض التي ضاعت... لن تبقى ضائعة إلى الأبد. كان المخيم قد اعتاد على مرارة النكبة، لكن حزيران جاء كطعنة جديدة، أوسع من كل الجراح. في ستة أيام فقط، تساقطت المدن واحدةً تلو الأخرى. الضفة الغربية، غزة، الجولان، وسيناء. وفي قلب الحدث، القدس... المدينة التي لم تنم منذ ألف عام، سقطت فجأة في يد الغريب. الجنود دخلوا ساحات الأقصى، أصوات نعالهم تدوس على حجارة صلى عليها الأنبياء، وصرخة المؤذن تحولت إلى بكاء. في المخيم، جلس اللاجئون أمام الراديو الصغير، يتحلقون حوله كأنه نافذتهم الأخيرة على العالم. المذيع يقرأ بيانات الهزيمة، والقلوب تسقط واحدة تلو الأخرى. رجل عجوز ضرب بيده الأرض وقال: "ضاعت القدس؟ القدس لا تضيع...

القدس في القلب، وإن سقطت بالجسد." لكن النساء بكين طويلًا، وهن يعرفن أن فقدان القدس ليس كفقدان قرية أو بيت، بل كفقدان الروح نفسها. حزيران لم يكن شهرًا، كان خيبة أمة، وجرحًا جديدًا في جسد فلسطين. لكن من بين الدموع، بدأت تظهر ملامح جيل آخر: شباب أقسموا أن ما ضاع بـ السيوف، لن يعود إلا بالمقاومة. بعد حزيران، لم يبقَ في القلوب مكان للبكاء. الهزيمة أثقلت الجميع، لكنها ولدت نارًا لم يعرفوها من قبل. في المخيمات، شباب في العشرين لم يعودوا يحتملون الانتظار. قال أحدهم: "لماذا نعيش لا جئين؟ لماذا لا نحمل السلاح ونرجع؟" ومن بين الأزقة خرجوا، حفاة أحيانًا، لكن قلوبهم مشتعلة. جمعوا بنادق قديمة صدئة، رصاصات قليلة، وأقسموا أن أول رصاصة ستكون بداية طريق العودة. أمهاتهم كنّ يخشين عليهم، لكنهن يسلمنهم للقدر بدموع صامتة، كأن كل دمعة دعاء. في الجبال والوديان، بدأت العمليات الصغيرة: هجوم ليلي على دورية، كمين سريع، شعار يُكتب على الجدران. كانوا يعرفون أن السلاح قليل، لكنهم كانوا يرون في كل طلقة صوت فلسطين وهي تقول: "أنا هنا." العدو بدأ يشعر بالخوف، فلم يعد يواجه لاجئين فقط، بل مقاتلين يولدون من رحم الخيام. وصارت كلمة فدائي عنوانًا جديدًا لفلسطين، تتردد في الأغاني، وتكبر في الحكايات، حتى صار كل طفل يحلم أن يكون مثلهم. مرت السنوات، والفدائي صار رمزًا، لكن الجيل الجديد لم يملك بنادق، بل حمل ما وجد أمامه: الحجارة. في شوارع غزة ونابلس و الخليل، خرج الأطفال أولًا، ثم تبعهم الكبار. جندي مدجج بالسلاح يقف في مواجهة طفل لا يتجاوز الثانية عشرة، وفي يده حجر صغير. لكن الحجر لم يكن حجرًا فقط، كان صرخة جيل، كان غضبًا تراكم منذ النكبة، وكان إيمانًا بأن الوطن لا يعود إلا بالمواجهة. النساء كنّ يخبزن الخبز صباحًا، ويخفين

الحجارة في سلال القمح لأبنائهن. المساجد صارت منابر للحرية، والشوارع مدارس للتحدي. كل بيتٍ في فلسطين صار خندقًا، كل زقاق صار ساحة مواجهة. المعتقلات امتلأت، لكن الوجوه في الداخل كانت تبتسم بفخر. الا نتفاضة الأولى لم تكن حرب جيوش، كانت حرب إرادة. الحجارة الصغيرة كسرت كبرياء الدبابة، وأثبتت للعالم أن شعبًا أعزل يستطيع أن يشقّ التاريخ. وفي ليالي المخيم، كان الأطفال يغنون: "يا شعبي يا عود الند..." فتتحول الأ غنية إلى راية، والراية إلى قسم، والقسم إلى جيل جديد لا يعرف الخوف. كان الأقصى قلب فلسطين، نبضها الذي لا يتوقف. لكن حين دنسوه بأحذيتهم ، اهتزت الأرض كلها. في سبتمبر 2000، دخل الجنود ساحة المسجد، والأ صوات تصرخ: "الله أكبر..." رصاص يطلق في الهواء، وأطفال يسقطون على ا لأرض. مشهد الدم عند أبواب الأقصى كان شرارة البركان. المدن كلها اشتعلت: رام الله، نابلس، غزة، كل شارع صار جبهة، كل بيت صار متراسًا. لم تعد الحجارة تكفي. الشباب قرروا أن أجسادهم نفسها هي السلاح الأخير. عمليات استشهادية هزّت المدن المحتلة، وجعلت العدو يعرف أن الاحتلال ليس نزهة. كانت الانتفاضة الثانية أكثر قسوة، أكثر دموية. لكنها أيضًا أكثر وضوحًا: شعب يرفض أن يموت، يرفض أن يستسلم. في الليل، كانت الأمهات ينتظرن أبناءً لن يعودوا. لكن بدل البكاء، كان في العيون نور فخر: "ابني لم يمت... ابني صار شهيدًا." دماء الأقصى لم تكن دماءً عابرة، كانت توقيعًا جديدًا على عهد قديم: أن القدس لا يمكن أن تُترَك، وأن فلسطين لن تسكت. من بين أنقاض البيوت المهدمة، ومن قلب الأزقة الضيقة في غزة، انبثق صوت جديد. شباب بسطاء، طلاب في الجامعات، أئمة في المساجد، وعمال في الشوارع، قرروا أن يرفعوا راية المقاومة باسم جديد: حماس. لم يكن

معهم الكثير، لا جيوش ولا عتاد، لكن كان معهم الإيمان، والقناعة أن المقاومة ليست خيارًا، بل قدرًا. في البداية، كانت كلمات في المساجد، وشعارات على الجدران، ثم تحولت إلى خلايا سرية، إلى صواريخ صغيرة مصنوعة من أنابيب بدائية، إلى عمليات تهزّ العدو. غزة صارت عنوانًا جديدًا للكرامة. كل شارع فيها يخبئ سرًا، كل بيت يشارك في المعركة، كل طفل يحلم أن يكون مقاتلًا. العالم حاصر غزة، لكن غزة لم تعرف الركوع. كلما ضاقت بها الأرض، ارتفعت في السماء. صوتها صار يصل إلى أبعد مكان، ويقول للعالم: "هنا أرض تقاتل وحدها... لكنها لن تموت." حماس لم تكن مجرد حركة، كانت صرخة غزة، كانت روح المقاومة التي تجددت في شعبٍ لم يعرف معنى الاستسلام. حين قررت غزة أن تقول "لا"، أغلقوا عليها كل الأبواب. البحر صار سجنًا، السماء صار سياجًا، حتى الهواء صار مراقبًا. سنوات طويلة بلا كهرباء كافية، بلا دواء يصل إلى المرضى، بلا غذاء يكفي الأطفال. لكن غزة لم تستسلم. كانت تضيء ليلها بالشموع، وتخبز خبزها على الحطب، وتضحك رغم كل شيء. ثم جاءت الحروب، الطائرات تصب نارها على البيوت، المباني تنهار فوق رؤوس ساكنيها، لكن في كل مرة يخرج الناس من تحت الركام، ينفضون الغبار عن ملابسهم، ويرفعون الأعلام. كل حرب كانت قاسية، لكنها لم تكسر الروح. بل أنجبت جيلاً جديدًا أشد صلابة، يحمل الحلم، ويرسم على الجدران كلمة "حرية" بالدم. الأم في غزة كانت تصنع من الخبز اليابس وجبة، وتقول لأطفالها: "غدًا أفضل." والأب كان يضحك رغم الحصار، ليخفي دموعه عن صغاره. في الليل، كانت أصوات القصف تختلط بأصوات الأذان، وكأن غزة تقول للعالم: "أنا مدينة على الأرض... لكن قلبي يرفرف في السماء." رغم كل الجراح، ورغم كل ما مرّت به فلسطين من نكبات وحروب، بقي في القلوب

ضوء لا ينطفئ. في المخيمات، الأطفال ما زالوا يرسمون بيوتًا على دفاترهم، يرسمون شجرة زيتون، ومفتاحًا كبيرًا يفتح بابًا نحو الوطن. في القدس، الأذان ما زال يعلو من فوق المآذن، والأجراس ما زالت تدق في الكنائس، كأن المدينة تقول للعالم: "أنا هنا... لم أمت." اللاجئون ما زالوا يحتفظون بـ المفاتيح، وبالأوراق القديمة، وبالقصص التي يروونها لأحفادهم: "هنا كان بيتنا، هنا بئر الماء، هنا زرعنا القمح." وفي غزة، رغم الحصار، رغم الدمار، ثمة طفل يضحك وهو يركض خلف طائرة ورقية، يرفعها في السماء، كأنها راية حرية لا يمكن إسقاطها. الغد ليس وعدًا بعيدًا، الغد يولد في كل حجر يُلقى، في كل دمعة أمّ تتحول إلى صبر، في كل شهيد يكتب بدمه سطرًا جديدًا في كتاب فلسطين. سيعود اللاجئون، وسيفتح الباب بالمفتاح القديم، وسيُزرع الزيتون من جديد في كل بيت، وستعود الأغاني الشعبية في الأعراس، وتعود الدبكة في الساحات، ويعود الفرح إلى الأرض التي عرفت الحزن طويلًا. فلسطين، يا أرض الصبر، يا أرض القيامة، سيأتي اليوم الذي تشرق فيه شمسك من جديد، ويعود كل غريب إلى بلده، ويبقى أهل الأرض في أرضهم، كما كان منذ الأزل

قصة: الأرشيف الأسود

لم يكن المكان يُشبه الأماكن التي يُفترض أن تُسمّى "مكاتب". لا ضوء شمس، لا نوافذ، ولا حتى خدعة بسيطة تُقنع الداخلين بأنهم ما زالوا على سطح العالم. كل شيء هنا يبدو كأنه دُفن عمداً، ثم أُعيد بناؤه تحت الأرض بطريقة تمنع أي احتمال للنجاة النفسية. جدران رمادية بلا ذاكرة. ممرات طويلة تتكرر كأنها لا تؤدي إلى شيء سوى نفسها. هواء بارد ثابت لا يعرف التغيّر. وأضواء بيضاء حادة لا تُضيء بقدر ما تكشف، كأنها لا تسمح بوجود ظلال يمكن الاختباء فيها.كانوا يسمّونه: الأرشيف الأسود. اسم إداري، في الوثائق. لكن في الواقع، لم يكن اسمًا. كان حكمًا غير معلن. دخل يوسف في الساعة الثامنة صباحًا. البوابة المعدنية الثقيلة أُغلقت خلفه كما تُغلق فكرة نهائية في ذهن لا يقبل التراجع. الصوت لم يكن مجرد "إغلاق"، بل كان أشبه بقطع خيط رفيع بين الخارج والداخل... بين ما يمكن نسيانه وما لا يمكن الهروب منه. الممر الأول استقبله ككل يوم. لكن يوسف، رغم تكرار الخطوات، لم يعتد المكان أبدًا. كان يشعر أن الأرض لا تُسند قدميه فعليًا، بل تختبر مدى قدرته على البقاء واقفًا فوق شيء غير مرئي. مرّ عبر عدة نقاط تفتيش صامتة، حيث لا أحد يتكلم. فقط نظرات سريعة، وبطاقات تمرير، وأجهزة تسجيل لا تُسأل عن شيء. ثم وصل إلى غرفته. غرفة التسجيل. طاولة معدنية باردة. كرسيان متقابلان. ميكروفون صغير موضوع في المنتصف كأنه شاهد لا يتكلم. شاشة واحدة تعرض رقم الملف، وتاريخ الاعتراف، و وسامًا غالبًا

قطعة من الحديد لا تعني شيء لصاحبها بعد دقائق. جلس يوسف. فتح النظام. اعتراف جديد: 4172لم يكن الرقم مهمًا. الأرقام هنا كانت وسيلة لتجريد الإنسان من اسمه دون أن يُقال له ذلك صراحة. الباب فُتح. دخل الرجل. لم تكن هناك لحظة مقدمة. هنا، لا أحد "يبدأ" الاعتراف. كأنهم جميعًا يدخلون وهم في منتصف جملة لا تعرف بدايته و لا نهايته جلس. لم ينظر إلى يوسف بل نظر إلى الطاولة، وكأنه يخشى أن ينظر إلى إنسان آخر قد يجعل الحقيقة أثقل مما يستطيع حمله. قال: "قتلتُها." صوت عادي. بلا ارتجاف. بلا تبرير. كأنه يقول جملة إدارية لا علاقة لها بالحياة أو الموت. يوسف ضغط زر التسجيل. ضوء أحمر صغير اشتعل. العلامة الوحيدة التي تؤكد أن شيئًا مهمًا يحدث. "من؟" سأل يوسف. تردد الرجل جزءًا من ثانية فقط. ليس لأنه لا يعرف الإجابة، بل لأن الإجابة كانت أكبر من أن تُقال بسهولة. ثم قال: "زوجتي." صمت. في هذا المكان، الصمت ليس فراغًا. بل مادة ثقيلة، تتراكم بين الكلمات وتمنعها من السقوط بسرعة. قال يوسف : "كيف حدث ذلك؟" رفع الرجل رأسه قليلًا. هذه المرة فقط نظر إلى يوسف، لكن نظرته لم تكن موجهة إليه، بل كأنه يرى شيئًا خلفه. ابتسم ابتسامة قصيرة و قال: لم يكن هناك مشهد يستحق أن يُروى. لا شجار كبير، لا دموع، لا صراخ طويل. فقط لحظة واحدة... توقفت فيها عن رؤية أي سبب يمنعني ." توقف قليلا. كأن ذاكرته تحتاج أن تلتقط أنفاسها. ثم أضاف: "وأنا لم أندم." الجملة الأخيرة لم تكن اعترافًا. كانت إعلانًا عن غياب شيء يفترض أنه موجود. وهنا، شعر يوسف بشيء غير معتاد. ليس في الغرفة. بل داخله. كأن الكلمة الأخيرة لم تدخل أذنه... بل دخلت مكانًا أعمق، لا يستخدم اللغة بل يستخدم الإحساس. أنهى الرجل حديثه دون طلب شيء. لم يطلب

غفرانًا. لم يطلب تخفيف العقوبة لم يحاول حتى أن يبدو كإنسان يحتاج إلى إنقاذ. وقف. غادر. الباب أغلق. الصوت كان بسيطًا... لكن يوسف شعر وكأن شيئًا ما تغيّر داخله. بقي يوسف وحده. المكان أصبح ساكنًا بشكل غير طبيعي، لكن ليس سكوتًا مريحًا. كان سكوتًا "مشحونًا"، كأن الهواء نفسه يحتفظ بما قيل للتو. نظر إلى الشاشة. الملف محفوظ. رقم. وقت. كلمات مختصرة. لكن الاعتراف الحقيقي لم يكن في الشاشة. كان في الغرفة نفسها. في الطريقة التي تغيّر بها الإحساس دون سبب واضح. في الساعة التالية، دخلت امرأة. كانت أصغر سنًا من أغلب من يدخلون هذه الغرفة. جلست بسرعة، كأنها تخاف أن تغيّر رأيها إذا انتظرت أكثر لم تنتظر سؤالًا. قالت مباشرة: "أنا خنت زوجي." ثم سكتت. كأنها تنتظر أن يحدث شيء بعدها. يوسف ضغط التسجيل. "هل تشعرين بالندم؟" هزّت رأسها ببطء.و قالت"هذه المشكلة" سكتت لحظة أطول. و أضافت: "أنا كنت متأكدة أنني سأشعر بشيء. أي شيء. بكاء، ارتباك، كره لنفسي... حتى غضب. لكن لم يحدث شيء. رفعت عينيها أخيرًا. "أنا فقط... أكملت يومي." الجملة الأخيرة كانت أخطر مما يبدو. لأنها لم تكن عن الفعل. بل عن غياب أثر الفعل. يوسف كتب ببطء. ثم سأل: "هل هذا أول مرة؟" هزّت رأسها "أول مرة ألاحظ فيها أنني لا أشعر بشيء." صمت. ثم أضافت بصوت أخفض: "وأخاف أن هذا ليس مؤقتًا." غادرت. وبقي يوسف مرة أخرى وحده. لكن الوحدة لم تكن كاملة. كان هناك شيء بدأ يتشكل في الخلفية. ليس فكرة واضحة. و ليس صوتًا. بل نوع من المشاعر الغير مفهوم تحاول أن تتغلغل في أعماق يوسف دون أي أستاذان و في نهاية اليوم، عندما أُقفلت الغرفة وأُطفئت الأجهزة، جلس يوسف للحظات دون حركة. الملفات أمامه مغلقة. الأضواء ثابتة. الصمت كامل. ومع ذلك...لم

يكن المكان فارغًا. كان ممتلئًا بشكل غير مرئي. كأن كل اعتراف مرّ اليوم لم يعد مجرد حدث انتهى بل ترك ورائه أحساس سيأثر علي الحاضر و المستقبل شيء لا يظهر في النظام. ولا يُسجّل في الأرشيف. ثم سمعه. ليس بصوت خارجي. بل كأن جزءًا صغيرًا جدًا من ذهنه تكلم لأول مرة بصيغة ليست له: "كم نسبة الإنسانية التي بقيت فيهم بعد الاعتراف؟" رفع يوسف رأسه ببطء. الغرفة لم تتغير. لكن الإحساس كان واضحًا: أن الأرشيف الأسود لا يحتفظ با لاعترافات فقط...

بل يبدأ في استقبال ما هو أعمق منها. ما لا يُقال. وما لا يُفقد بسهولة. في اليوم التالي، لم يأتِ أحد. هذا لم يحدث من قبل. الأرشيف الأسود لا يعرف التوقف. كأنه يعمل على منطق مختلف عن منطق البشر لا يحتاج إلى استراحة، لا يعترف بالإجازات، لا يقبل فكرة أن الاعترافات يمكن أن تنتظر. ا لاعترافات لا تنتظر. هذا ما كان يوسف يعرفه. لكن الغرفة بقيت فارغة. الكرسي المقابل ظل خاليًا طوال الصباح، والميكروفون في مكانه كشاهد لا يجد ما يشهد عليه، والضوء الأحمر لم يشتعل ولو مرة. جلس يوسف وأمامه الشاشة تعرض الرقم التالي:"4173" لكن لا أحد خلفه. في البداية، حاول أن يملأ الوقت بالطريقة الإدارية المعتادة مراجعة ملفات قديمة، تدقيق في تفاصيل مُسجّلة، ترتيب أرقام لا تحتاج إلى ترتيب. لكن يده كانت تتحرك وذهنه ثابت في مكان آخر. في جملة قالها الرجل بالأمس "لم يكن هناك شيء خاص." المشكلة ليست في الجملة نفسها. المشكلة في الطريقة التي قالها بها بصوت عادي جدًا، كأنها حقيقة مناخية . مثل أن يقول أحدهم: "المطر نزل أمس." أو "الجو كان باردًا." يوسف عمل هنا منذ أربع سنوات. أربع سنوات من الاستماع. وفي هذه الفترة، تعلم أن الاعترافات تأتي بأشكال مختلفة، لكنها

في النهاية تنتمي إلى نوعين لا ثالث لهما: النوع الأول هو الاعتراف الذي يحمله صاحبه كثقل يريد إلقاءه. يدخل الغرفة وهو ينحني قليلًا تحت وزن غير مرئي، ويتكلم بالطريقة التي يتكلم بها من يحاول أن يتنفس تحت الماء ، بتقطع، بحاجة ماسّة إلى الانتهاء. النوع الثاني وهو الأخطر هو الاعتراف الذي لا يُشعر صاحبه بشيء. يدخل بهدوء. يجلس بهدوء. يتكلم بهدوء. ثم يخرج بهدوء. كأن الكلمات التي قالها لم تمسّه من الداخل قط، بل مرّت عبره كما يمر الهواء عبر غرفة مفتوحة النوافذ. الرجل بالأمس كان من النوع الثاني. وكذلك المرأة. وهذا ما جعل اليوم التالي مختلفًا. ليس غياب الناس. بل غياب يوسف نفسه عن حضوره المعتاد. في منتصف النهار، دخل شخص. لكنه لم يكن من الملفات المجدولة. كان زميلًا قديمًا يعمل في الطابق الثالث مكتب التحقق والتصنيف. اسمه سامي. رجل في منتصف الخمسينيات، وجهه يشبه الجدران المتشقق دخل وهو يحمل كوبين من القهوة. وضع أحدهما أمام يوسف دون أن يسأل. جلس على الكرسي المقابل الكرسي الذي كان يجلس عليه الرجل بالأمس. "يوم هادئ؟ لا أحد." "أعرف." حرّك كوبه ببطء. "حدث هذا مرة قبل سبع سنوات. توقف كل شيء ليوم كامل. لا أحد عرف السبب. في اليوم التالي، عادت الأرقام كأن شيئًا لم يحدث." يوسف نظر إليه. "هل قلقتَ من ماذا؟" فكّر سامي لحظة. "لا." ثم أضاف: "بل كنت ممتنًا." صمت. قال يوسف "هذا هو المشكل فيك يا سامي، تكون صادقًا في ا لأوقات الخاطئة." ابتسم سامي ابتسامة خفيفة لم تصل إلى خده. شرب قهوته. ثم قال بصوت مختلف، أهدأ: "سمعت عن الملف الأمس." "أيهم؟" "الرجل." يوسف لم يتكلم. "ليس لأنني قرأته،" أكمل سامي. "بل لأن الطريقة التي خرج بها... الحارس عند المدخل قال إنه مشى كأنه يخرج من دكان

بقالة بعد أن اشترى ما يحتاجه." الجملة لم تكن مجازًا. كانت أدق وصف ممكن. وهذا ما أزعج يوسف أكثر من أي شيء آخر. غادر سامي بعد ربع ساعة. وعاد الصمت. لكن هذه المرة، الصمت لم يكن مجرد غياب صوت. كان حضور شيء يرفض أن يُسمّى. يوسف نظر إلى الكرسي الفارغ. وفكّر ليس كمسجِّل، بل كإنسان يجلس وحده في مكان أنجزت فيه أشياء لا يمكن التراجع عنها فكر في السؤال الذي سمعه البارحة من مداخله: "كم نسبة الإ نسانية التي بقيت فيهم بعد الاعتراف؟" و في لحظة صدق لم تستأذنه، أدرك يوسف شيئًا لم ينتبه إليه طوال هذه السنين : أنه لم يعد يتذكر متى آخر مرة غادر هذا المكان وشعر أن شيئًا ما في داخله لا يزال سليمًا تمامًا. ليس تعبًا. و ليس حزنًا. بل شيئًا أدق كأن شيئًا صغيرًا ومهمًا بداخله يختفي قليلًا في كل مرة ينهي فيها ملفًا. لم يكتب هذا في تقرير. لم يقله لأحد. ربما لأنه لم يكن يعرف كيف يُصنّف. والأرشيف الأسود لا يحتفظ إلا بما يمكن تصنيفه. في الساعة الثالثة والنصف، دخل شاب. صغير السن ربما في منتصف العشرينيات. يرتدي ملابس عادية، و تبد عليه ملامح التعب و عدم النوم منذ أيام. شعره مرتب بشكل مبالغ فيه، كأنه أراد أن يُخفي شيئًا بشكله ظاهري. جلس. نظر إلى الميكروفون طويلًا. "هذا يُسجّل؟" "نعم." "ويُحفظ أين؟" "في النظام." "ثم؟" يوسف توقف لحظة. "لا أعرف ما الذي يحدث بعدها." كانت هذه هي الإجابة الصادقة الأولى التي يقولها يوسف منذ وقت طويل. وبدت غريبة في فمه. نظر إليه الشاب بطريقة مختلفة عن المعتاد. ليس بشك، بل بشيء أشبه بالارتياح المُفاجئ. "على الأقل أنت لا تكذب." ضغط يوسف التسجيل. "ما الذي جاء بك؟" فكر الشاب. ليس لأنه لا يعرف، بل لأنه يحاول أن يختار الدخول الصحيح إلى الجملة. ثم قال: "أنا لم أفعل شيئًا هذا هو الا

اعتراف." يوسف لم يتحرك. "لا أفهم." رفع الشاب عينيه. "كان بإمكاني. كنت هناك. كنت أعرف. ولم أفعل شيئًا شخص احتاجني أستنجد ولكن لم أتحرك . ليس لأنني لم أسمع. بل لأنني سمعت... وقررت ألا يكون ذلك مشكلتي." "وماذا حدث له؟" "ذهب." الكلمة جاءت بسيطة. لكن ثقلها لم يكن بسيطًا. "ذهب كيف؟" الشاب نظر إلى الطاولة. "بالطريقة التي لا رجعة منها." بعد أن خرج الشاب، لم يبقَ يوسف وحده كما اعتاد. هذه المرة كان هناك شيء مختلف. الملفات الثلاثة الرجل، المرأة، الشاب كانت في ظاهرها مختلفة. جرائم مختلفة، أو ما يُسمى هنا "جرائم". أوزان مختلفة، لغات مختلفة، طرق دخول مختلفة إلى الغرفة. لكنها كانت تنتهي في نقطة واحدة: الغياب. غياب الندم عند الرجل.

غياب الإحساس عند المرأة. غياب الفعل عند الشاب. ثلاثة أنواع من الغياب. و لكنهم يشتركون في شيء واحد و هو شيء قد أختف عنهم قبل و قول الفعل. أطفأ يوسف الشاشة. وقف. مشى نحو الباب. لكنه توقف قبل أن يلمس المقبض. لأنه أدرك بطريقة لم يتوقعها أن السؤال الذي سمعه البارحة من داخله لم يكن سؤالًا فلسفيًا. كان سؤالًا شخصيًا. لكن ربما السؤال الأدق الذي كان يخشى أن يصله هو: ماذا يحدث لأنسان حدق طويلا في ظلام الأخرين ؟ فتح الباب. خرج. الممر الطويل استقبله كما يستقبل كل يوم. لكن هذه المرة ، يوسف لاحظ شيئًا لم يُلاحظه من قبل: أن خطواته تُحدث صدى هنا. وأنه في أربع سنوات، لم يكن يسمعه لم يكن الصدى الذي سمعه يوسف في الممر دليلاً على وجود الصوت، بل كان دليلاً على خلوّ المكان. في الخارج، كانت الشوارع باهتة. لم تكن هناك أمطار، ولم تكن الشمس مشرقة؛ كان الطقس مجرد حالة حياد رمادية تشبه تماماً الجدران التي تركها خلفه. مشى يوسف

بين الناس، لكنه شعر لأول مرة بـ "الشفافية". كان يمر عابراً بجانب الأجساد دون أن يرتطم بها، كأنه كائن أُفرغ من كتلته داخل الأرشيف، ولم يتبقَ منه سوى غلاف خارجي يتحرك بآلية صلبة. في بيته، استقبله نفس السكون. لكنه لم يعد سكونه الخاص. كان سكوناً مستورداً من الغرفة. في الصباح التالي، عاد كل شيء إلى طبيعته الإدارية. البطاقات مُررت، البوابة المعدنية قُفلت بنفس النغمة النهائية، والشاشة اشتعلت لتعلن عن الرقم الجديد: 4174. دخلت عجوز. كانت تجر خطوتيها بثقة مفرطة لا تناسب جسدها المنحني. لم تكن خائفة، ولم تكن باردة كالآخرين. كانت تبدو كمن وصل إلى نهاية رحلة طويلة ومملة، وينتظر فقط توقيع ورقة المغادرة. جلست، ونظرت إلى يوسف مباشرة. كانت هذه أول مرة ينظر فيها "ملف" إلى عينيه دون تردد أو هروب. "أنت تبدو متعباً يا بني،" قالت بصوت دافئ، كان غريباً ومحاطاً بإنكار شديد في هذه الغرفة. "أنت تسمع الكثير، وتخزن الكثير، كخزانة قديمة أكل الصدأ مفتاحها." لم يضغط يوسف زر التسجيل فوراً. تجمّدت يده فوق الآلة. العبارة لم تكن اعترافاً، بل كانت تشخيصاً. "أنا هنا لأستمع إليكِ أنتِ، لا لتتحدثي عني،" قال يوسف بصوت حاول أن يجعله رسمياً، لكنه خرج مبحوحاً. ابتسمت العجوز ابتسامة جمدت له شبكية عينيه. "اعترافي بسيط يا بني. أنا لم أقتل، ولم أخن، ولم أخذل أحداً." "إذن، لماذا أنتِ هنا؟" سأل، وضغط الزر أخيراً. اشتعل الضوء الأحمر كعين ثالثة تراقب الحوار. قالت بهدوء: "أنا هنا لأ ننى نسيت. نسيت وجه ابني الذي مات قبل عشرين عاماً. طوال أسبوع كامل ، أحاول تذكر ملامحه، تفاصيل صوته، الطريقة التي كان يضحك بها... ولم أجد شيئاً. الذاكرة بيضاء تماماً. أنا هنا لأعترف بجريمة محوهِ من داخلي. لقد قتلته مرتين؛ مرة عندما أخذه الموت، ومرة عندما خذلته ذاكرتي." شعر

يوسف ببرودة الطاولة المعدنية تخترق ملابسه وتصل إلى عظامه. لم تكن المرأة تبكي. لم يكن هناك أثر لاختفاء الذات. كان الأمر مجرد تقرير عن "اختفاء". التفت يوسف إلى الشاشة، وبدأ يكتب بنقرات بطيئة، صدى ارتطام أصابعه بالحروف كان يبدو كضربات مطرقة في قبو فارغ. "هل تحاولين تذكره الآن؟" سأل يوسف دون أن يرفع عينيه عن الشاشة. "لا،" أجابت بـ العفوية ذاتها. "الآن، أنا مرتاحة. الاعتراف بالنسيان هو الطريقة الوحيد لإ خماد مشاعرك و عندما يثبت في الأوراق، يصبح حقيقة لا تؤلم." وقفت العجوز قبل أن يأذن لها النظام. غادرت بخطوات خفيفة، كأن الثقل الذي دخلت به قد تبخر بمجرد تحويل نسيانها لشيء مكتوب و من بعدها جلس يوسف وحده مجدداً. هذه المرة، لم ينظر إلى الكرسي الفارغ، بل نظر إلى يديه الممدودتين على الطاولة. تذكر كلام سامي عن "دكان البقالة"، وتذكر سؤال داخله القديم: كم نسبة الإنسانية التي بقت فيهم؟ الآن، صاغ يوسف ا لإجابة بنفسه، وبنفس النبرة الإدارية الجافة: الأرشيف الأسود لا يجرد الناس من إنسانيتهم. الناس يأتون إلى هنا بعد أن ينتهوا تماماً. هم يأتون لدفن الجثث اللغوية لمشاعر ماتت منذ زمن. الأرشيف ليس مقبرة... الأرشيف هو شاهد القبر فقط. التفت يوسف إلى الشاشة ليغلق الملف. لكن يده توقفت. في خانة "ملاحظات المسجِّل"، وهي الخانة التي يفترض أن تبقى فارغة أو تحتوي على كلمات إدارية وجيزة، وجد يوسف أصابعه تكتب جملة واحدة، لم يكن هو يفكر بها، بل كانت النسبة الضئيلة من الإنسانية المتبقية فيه: «الملف 4174: النسيان ليس غياباً للمواقف، بل هو الغياب الكامل للأثر. وفي هذا المكان، يبدو أننا جميعاً نتحول إلى أثر لشيء غير ملموس أصلا.» أغلق الجهاز. أطفأ الضوء الحاد. ولأول مرة منذ أربع سنوات، عندما مشى في الممر

الطويل، لم يسمع صدى خطواته فحسب... بل شعر أن الجدران نفسها تتقلص ، لتغلق على يوسف إلى الأبد. و حتي من الممر لم يتوقف عند حدود البوابة المعدنية في ذلك المساء بل امتد كخيط رمادي لا نهاية له. عندما عاد إلى شقته، لم يشعل الأنوار. جلس في الصالة المظلمة تاركاً الضوء الضئيل القادم من عمود الإنارة في الشارع يرسم مستطيلاً باهتاً على الأرضية. في تلك اللحظة، أدرك يوسف الخدعة: الظلام في الخارج ليس حقيقياً، إنه مجرد غياب للضوء. أما الظلام الذي يحرسه في "الأرشيف الأسود"، فهو مادة حية، كثيفة، ولها رائحة الأوراق القديمة والأنفاس المحبوسة. في الصباح، كانت حواف البوابة المعدنية تبدو أكثر حدة، كأنها نمَت خلال الليل. مرّ يوسف من نقطة التفتيش الأولى. الحارس لم ينظر إلى بطاقته هذه المرة، مررها مبشرتا كان الموقف عاديا ولكن بنسبة ليوسف مرعبا. "هل يراني فعلاً؟" تساءل يوسف في سره، "ثم أتجه مسرعا نحوي مكتبه كأنه يسابق الوقت في البداية ، لم يكن يوسف يلاحظ أن شيئًا حقيقيًا يتغير...كل ما في الأمر أن الا عترافات داخل الأرشيف الأسود بدأت تأخذ شكلًا مختلفًا في داخله دون أن ينتبه. كان الأمر يبدو بسيطًا في ظاهره: يدخل الغرفة في الصباح، يجلس أمام الميكروفون، يستمع، يسجل، يغلق الملف، ثم يغادر. نظام متكرر، بارد، ومنضبط لدرجة لا تترك مجالًا للتأويل. لكن الغريب أن هذا النظام نفسه بدأ يترك فراغًا غير مفهوم خلفه. لم تعد الكلمات التي يسمعها تمر عبره كما كانت في السابق. لم تعد مجرد أصوات تنتهي عند حدود التسجيل، بل بدأت تأخذ مسارًا آخر، خفيًا، غير مرئي، كأنها لا تكتفي بأن تُسجّل... بل تبحث عن مكان آخر تستقر فيه. في البداية، لم يكن هذا "المكان الآخر" واضحًا له. كان مجرد شعور غامض يظهر بعد انتهاء كل جلسة. إحساس لا اسم له، لا يمكن ربطه

بحدث محدد، لكنه كان موجودًا بثبات مزعج أحيانًا كان يخرج من الغرفة وهو يشعر بثقل في صدره . وأحيانًا يجد نفسه شاردًا في الممر الطويل دون سبب، كأن عقله خرج وغادرة الغرفة. حاول أن يفسر ذلك بطريقة منطقية. ق ال لنفسه: ربما هو الإرهاق، ربما ضغط العمل، ربما طبيعة المكان المغلق تحت الأرض الذي لا يسمح للهواء أو الضوء أن يخففا من ثقل الأيام. لكن التفسير المنطقي كان ينهار بصمت أمام تكرار الإحساس نفسه، بشكل مختلف كل مرة لكنه يحمل الجوهر ذاته. بدأ يوسف يلاحظ شيئًا آخر أيضًا... وهو أنه كلما زاد عدد الملفات التي يمر عليها، أصبح من الصعب عليه أن يفصل بين "ما سمعه" و "ما يشعر به". كأن هناك خطًا صغيرا جدًا، غير مرئي، يبدأ بالاهتزاز داخل نفسه دون أن يعلن عن نفسه بشكل مباشر. لم يكن يعرف متى بدأ هذا الخط بالتشكل، لكنه كان متأكدًا من شيء واحد: أنه لم يعد كما كان تمامًا قبل دخوله الأرشيف الأسود. وهذا الإدراك وحده... كان كافيًا ليجعله يتوقف لحظة أطول من المعتاد أمام الشاشة، دون سبب واضح، قبل أن يهمس داخله سؤال لم يجرؤ على قوله بصوت مسموع: هل ما أسمعه يظل في الغرفة... أم أنه متكون داخلي أنا؟ مع مرور الوقت، بدأ يوسف يلاحظ أن فكرة "الأ رشيف" لم تعد تبدو له كمكان إداري أو نظام بيروقراطي كما كان يعتقد في البداية. لم يعد ذلك البناء تحت الأرض مجرد غرف، ممرات، شاشات، وملفات تُسجّل فيها الاعترافات... بل بدأ يأخذ في ذهنه شكلًا مختلفًا، غير واضح، لكنه حاضر باستمرار، كأن هناك "شيئًا" خلف كل ذلك، يراقب بهدوء، ويستمع دون أن يُرى. في البداية، كان يرفض هذه الفكرة تمامًا. النظام بالنسبة له كان بسيطًا: إجراءات، تسجيل، أرشفة، وتنظيم للحقائق التي يقولها الناس. لا أكثر. و لكن مه مرور الأيام لم يعد النظام يبدو كأداة يستخدمها البشر... بل

بدأ يبدو كأنه شيء يستخدم البشر أنفسهم. ليس بشكل مباشر، وليس بطريقة يمكن الإمساك بها، بل بطريقة أعمق، وأكثر خفاءً من أن تُلاحظ في اللحظة الأولى. كان يوسف يشعر أحيانًا، وهو يجلس أمام الشاشة، أن الغرفة ليست مجرد مساحة عمل، بل كأنها نقطة عبور. كأن كل من يدخلها لا يخرج منها كما دخل، حتى لو بدا ذلك ظاهريًا. هناك شيء يتغير... شيء لا يُسجّل في الملفات، ولا يظهر في التقارير، ولا يمكن للنظام نفسه أن يعترف به. بدأ يشعر أن "النظام" ليس مجرد برنامج أو هيكل إداري، بل كيان غير مرئي، بلا شكل، بلا صوت، لكنه حاضر في كل تفصيله. كيان لا يتكلم... لكنه يجعل الآخرين يتكلمون. لا يطلب... لكنه يأخذ. ولا يظهر... لكنه يترك أثره في كل من يمر عبره. مع كل اعتراف جديد، كان يوسف يشعر أن هناك شيئًا غير مرئي يحدث في الخلفية، شيء يتجاوز حدود التسجيل نفسه. كأن النظام لا يكتفي بتوثيق ما يقوله الناس، بل يتغذى عليه بطريقة لا يمكن تفسيرها بسهولة. لم يكن الأمر واضحًا في البداية، لكنه بدأ يظهر في التفاصيل الصغيرة. في الطريقة التي يصبح بها الصمت في الغرفة أثقل بعد كل جلسة. في الشعور الغامض الذي يرافقه عند مغادرة المكتب، كأن الهواء نفسه أصبح مختلفًا. لم يكن ما تغيّر في البداية شيئًا يمكن الإمساك به. لم تتبدل الجدران، ولم تتغير نبرة الضوء الأبيض الحاد، ولم يتوقف الهواء البارد عن التدفق في ممرات الأرشيف الأسود كما لو أنه قادم من مكان لا ينتمي لهذا العالم أصلًا. كل شيء بدا كما هو. أو هكذا ظن يوسف. لكن المشكلة دائمًا لا تبدأ بما يمكن رؤيته. بل بما يُلاحظ متأخرًا. في البداية، لم ينتبه يوسف لها. مجرد أشياء جانبية تُرى بطرف العين ثم تختفي. بقع سوداء صغيرة تتحرك في نهاية الممرات. انحناءات خاطفة عند الزوايا. شيء يشبه شخصًا يقف بعيدًا، لكن

عندما ينظر مباشرة لا يجد شيئًا. في الأسبوع الأول، أقنع نفسه أنها آثار إرهاق. في الأسبوع الثاني، لم يعد مقتنعًا. لأن الظلال بدأت تظهر خارج الأ رشيف. في بيته. في الشارع. خلف زجاج الحافلات. في انعكاس النوافذ. وفي كل مرة، لم تكن تبدو كأجسام مستقلة... بل كأن شيئًا ينسحب من الناس أنفسهم. في أحد الأيام، كان يقف في متجر صغير ينتظر دوره. أمامه رجل يتحدث عبر الهاتف ويضحك. وفجأة... رأى يوسف شيئًا يخرج من كتف الرجل. لم يكن دخانًا. ولم يكن ظلًا طبيعيًا. كان شيئًا أسود كثيفًا يتحرك ببطء شديد، كأن قطعة من العتمة انفصلت عنه ووقفت خلفه. ثم بدأت تأخذ شكلًا. في البداية كانت كتلة. ثم انحناءة. ثم رأس. ثم ذراعان. كأن شيئًا يُولد أمامه. تراجع يوسف خطوة. اختفى الشيء فورًا. نظر حوله. لا أحد تحرك. لا أحد رأى شيئًا. عاد الرجل للضحك عبر الهاتف كأن شيئًا لم يحدث. لكن يوسف شعر بشيء بارد يمر داخل صدره. ذلك الشيء خرج من الرجل. لا من المكان. وفي الأيام التالية أصبح الأمر أسوأ. بدأ يرى أشكالًا سوداء تخرج من الناس أثناء لحظات معينة. رجل يبتسم لزوجته بينما خلفه كتلة سوداء تنمو من ظهره. امرأة تعتذر وهي تحمل وراءها فراغًا مظلمًا يشبه حفرة مفتوحة. طفل يبكي فتظهر حوله خيوط سوداء رفيعة. وببطء... بدأ يوسف يفهم. الأ رشيف لم يكن يجمع الاعترافات. بل كان يجمع شيئًا آخر. ما يخرج بعد الا عتراف. ما يتبقى. الجزء الذي لا يغادر صاحبه. الظلام الذي يُولد حين يموت شيء داخلك. وحين أدرك ذلك... بدأ يراه داخل الأرشيف أيضًا. الغرفة تغيرت. لا ظاهريًا. الطاولة كما هي. الميكروفون كما هو. لكن بين الجدران... كانت توجد الآن كتل سوداء صغيرة تتحرك ببطء. تلتصق بالسقف. تزحف قرب الزوايا. تراقب. لم يكن أحد يراها. إلا يوسف. وكانت تكبر. كل يوم. كل

اعتراف. كل ملف. كل كلمة. حتى جاء اليوم الذي دخل فيه رجل جديد إلى غرفة التسجيل. جلس. خفض رأسه. صمت طويلًا. لكن يوسف لم يكن ينظر إليه. لأن خلفه... كان يقف شيء آخر. شيء أسود. لكنه هذه المرة لم يكن بلا ملامح. كان له وجه. وجه غير واضح. وجه ناقص. كأنه لم يكتمل بعد. لكن يوسف شعر بشيء جمد الدم داخله. الوجه كان يشبهه. ليس تمامًا. لكن قريبًا جدًا. في تلك الليلة لم ينم. جلس في شقته المظلمة دون أن يشعل الأنوار. تاركًا الضوء الخافت القادم من الشارع ينساب على الأرض مثل بقعة رمادية ميتة. لم يتحرك. لم يفكر. أو ربما كان يفكر أكثر مما ينبغي. ثم سمع صوتًا. ليس من الخارج. من داخل الشقة. فتح عينيه ببطء. وفي آخر الممر... كان هناك شخص واقف. صامت. لم يتحرك. يوسف وقف. قلبه بدأ يضرب بعنف. الشخص بقي مكانه. خطوة. خطوتان. اقترب يوسف ببطء. ثم توقف. لأنه رأى وجهه. وجهه هو. نفس العينين. نفس الملامح. نفس الانحناءة الخفيفة في الكتف. لكن كان هناك شيء خاطئ. شيء صغير جدًا. شيء لا يُرى مباشرة. ثم أدركه. العينان. لم يكن فيهما خوف. ولا تعب. ولا حياة. كانتا فارغتين تمامًا. قال يوسف بصوت خرج مكسورًا: "من أنت؟" ابتسم الآخر. وكانت الابتسامة بطيئة أكثر مما ينبغي. وقال: "أنا الشيء الذي بقي." ساد الصمت. شعر يوسف بأن الشقة أصبحت أصغر. أضيق. كأن الجدران تقترب. ق ال يوسف: "لا..." ابتسم الآخر. "أربع سنوات يا يوسف." خطوة أخرى. "أربع سنوات وأنت تسمعهم." خطوة. "تظن أنك كنت تسجل كلمات؟" خطوة. "لا." اقترب أكثر. "كنت تستقبلهم." قال يوسف: "أنت غير حقيقي." ابتسم الآخر. "إذن لماذا تهرب مني؟" سكت يوسف. لأنه لم يجد جوابًا. قال الآخر: "الرجل فقد ندمه." "المرأة فقدت شعورها." "الشاب فقد فعله." "العجوز فقدت

ذاكرتها." ثم اقترب جدًا. قريبًا لدرجة أن يوسف شعر بأنفاسه. وقال: "وأنت يا يوسف..." صمت طويل. "ماذا فقدت؟" شعر يوسف بشيء يتحطم داخله. لأنه فجأة... لم يعرف. لم يتذكر آخر مرة ضحك فيها. لم يتذكر آخر مرة أحب فيها شيئًا. لم يتذكر آخر مرة شعر بأنه خارج الأرشيف. وأدرك الحقيقة المرعبة: لم يكن الظلام يخرج من الآخرين فقط. كان يخرج منه أيضًا. منذ زمن. والشيء الواقف أمامه... لم يكن دخيلًا. بل كان يتشكل ببطء طوال السنوات الماضية. من كل جلسة. كل ملف. كل اعتراف. كل جزء صغير مات داخله دون أن ينتبه. تراجع يوسف. لكن الآخر لم يتحرك. وقال بهدوء: "أنا لست عدوك." ثم ابتسم. "أنا أنت... بعد حذف ما لا يلزم." ساد الصمت. ثم حدث شيء غريب. بدأت الظلال بالخروج. من الجدران. من الأرض. من السقف. ومن يوسف. خيوط سوداء خرجت من صدره. من ذراعيه. من ظهره. بدأت تتحرك نحو الآخر. وكان يوسف يريد الهرب. لكن للمرة الأولى... لم يهرب. تذكر سؤاله القديم: ماذا يحدث لإنسان حدق طويلًا في ظلام الآخرين ؟ وأخيرًا... وصل الجواب.

قصة: حارس كلمة

في ذلك العصر الذي كانت فيه بغداد ملتقى طرق العالم، حيث تمتزج رائحة التوابل القادمة من الهند برائحة الورق الطازج في سوق الورّاقين، وبصخب اللغات في بيت الحكمة، كان الشاب "يوسف" يعيش على هامش ذلك البريق كله. كان فقيراً، يرتدي جبة رثة، لكنه كان يملك في أصابعه هبة تفوق الذهب: خطاً منمقاً كأنه نُسج من خيوط الضوء، وموهبة خارقة؛ فإذا سمع كلمة، انطبعت في عقله كأنها نُقشت على حجر، لا تسقط منها حركة ولا يغيب عنها حرف.

في ليلة غاب قمرها، اقتحم حرس الخلافة حجرته البسيطة في أطراف الكرخ، واقتادوه معصوب العينين إلى القصر العباسي المهيب. هناك، في قاعة سرية لا تصلها الشمس، نزعوا العصابة عن عينيه ليجد نفسه واقفاً أمام "الخليفة" بنفسه.

كان الخليفة مهيباً، عادلاً في نظر الرعية، يوزع العطايا ويقيم الحدود، لكن يوسف لمح في عينيه، تحت ضوء الشموع، ثقلاً يسحقه، كأن جبالاً من الأسرار تبرك فوق صدره. نظر الخليفة إلى يوسف، وقال بنبرة حازمة: "قيل لي إنك لا تنسى سطراً سمعته. من اليوم، أنت كاتب سرّي خلف هذه الستار. مهمتك أن تدون كل همسة، كل اتفاق، وكل مؤامرة تُحاك داخل هذه القاعة. لقد أقسمتَ على المصحف ألا تكذب، وألا تنسى، وألا تخرج من هذه الغرفة حياً إن بَحتَ بحرف".

أصبح يوسف كالحبر في دواة القصر؛ يرى كل شيء ولا يراه أحد. كان يجلس خلف ستار حريري رقيق، يراقب حركة الأجساد ويسجل الكلمات.

ومع مرور الأيام، بدأ يوسف يلاحظ تفاصيل اللعبة الخطرة. كان هناك "الوزير"، صاحب الابتسامة الباردة والخطوات الهادئة كخطوات الفهد. كان الوزير يعلم بوجود كاتب سري، وكان يريد أن يكون ذلك القلم في يده هو، لا في يد يوسف، لكي يوجه التاريخ والقرارات كيفما يشاء. كان الوزير يمر قرب الستار ويتعمد الهمس بكلمات مبهمة، كأنه يختبر حدود صبر الكاتب الشاب.

لكن السر الأكبر لم يأتِ من الوزير، بل جاء من "ذاكرة"... جارية القصر الفاتنة التي كلفت بالخدمة في القاعة السرية. لم تكن جارية عادية؛ كانت تتحرك كطيف، وعيناها الواسعتان تخبئان أسراراً تفوق ما دونه يوسف في دفاتره. اكتشف يوسف أنها تحفظ تفاصيل القصر منذ عقود، وتعرف مخابئه، لكنها كانت شديدة الذكاء؛ تختار بعناية ما تبوح به، ومتى تبوح به.

في إحدى الليالي، بينما كان يوسف يراجع دفاتره، دخلت ذاكرة ببطء، ووضعت كأساً من الماء أمامه. نظرت إلى القلم في يده، وهمست بصوت كحفيف الشجر: "الورق يتحمل الحبر يا يوسف... لكن هل يتحمل قلبك ما ستكتبه الليلة؟".

قبل أن يفهم مقصودها، دخل الخليفة والوزير في اجتماع مغلق. ومن خلف الستار، استمع يوسف إلى السر الذي تزلزلت له جدران الخلافة: الخليفة الحاكم ليس هو الخليفة الشرعي، بل هو شقيقه التوأم الذي استبدله في ليلة مظلمة قبل سنوات بعد أن قتل الخليفة الحقيقي، والوزير هو الوحيد الذي يعلم بهذا السر ويستخدمه لخنق الخليفة وابتزازه لإدارة الدولة في الخفاء.

ارتجفت يد يوسف، وسقط القلم من أصابعه ليحدث بقعة حبر سوداء ضخمة على السجل الملكي. لقد علم بالسر الذي لم يعش أحد بعد معرفته. وبات

يوسف محاصراً في صراع وجودي مرعب: الأمانة والقسَم اللذان يفرضيان عليه تدوين هذه الحقيقة التاريخية في السجل، أم الصمت والبقاء؟ فالوزير سيكتشف السجل حتماً، والخليفة المزيف لن يتركه حياً إن علم بأنه دَوّن خيانته.سقط القلم من يد يوسف للمرة الأولى، وأحدث دويّ ارتطامه بالأرض الخشبية خلف الستار رنينًا كاد يقطع أنفاسه. في الخارج، تظاهر الخليفة و الوزير بعدم السماع، لكن يوسف لمح من شق الستار الحريري التفاته خاطفة من عين الوزير الحادتين نحوه. التفاتة كانت كافية لتقول: أنا أعلم أنك سمعت.

أمضى يوسف بقية ليلته في غرفته الصغيرة الملحقة بالقاعة السرية، يراقب شمعته وهي تذوب، ويستمع إلى دقات طبول الحرس في باحة القصر. كان يشعر أن جدران بغداد كلها تضيق عليه. إن عقله الذي لا ينسى أصبح الآن زنزانته؛ فالكلمات التي سمعها تتردد في أذنيه بصوت الخليفة المتحشرج وصوت الوزير الشامت: "أنت تجلس على عرش بنيته بجثة أخيك يا مولاي".

في الصباح الباكر، وبينما كان يوسف يحاول تنظيف بقعة الحبر الأسود عن السجل، دخلت الجارية "ذاكرة". لم تكن تحمل إبريقًا للماء هذه المرة، بل كانت تحمل قنينة حبر صغيرة مصنوعة من الزجاج الشفاف، وضعتها أمامه ببطء.

نظر إليها يوسف وعيناه غائرتان من قلة النوم، وقال بصوت مبحوح: "أنتِ كنتِ تعلمين... منذ البداية، كنتِ تعرفين من يجلس على العرش".

جلست ذاكرة على طرف البساط، ونظرت إلى النافذة البعيدة حيث كانت مآذن بغداد تلوح في الأفق تحت شمس الصباح، وقالت بنبرة باردة وناضجة:

"يا يوسف، في هذا القصر، الحيطان لها آذان، والآذان لها مقابر. أنا جارية في هذا البلاط منذ أن كان الخليفتان صبيين يركضان في الممرات. رأيتُ كيف نبتت الغيرة في قلب هذا، وكيف ذُبح الآخر في ليلة مطيرة. لكنني اخترت الصمت.. لأن الصمت في قصور الملوك هو الدرع الوحيد الذي لا ينفذ منه السيف".

اقتربت منه وهمست: "الوزير لن يتركك يا يوسف. إنه يبحث عن زلة ليمزق هذا الستار ويأخذ السجل. هو يريد أن يملك القلم الذي يكتب التاريخ لكي يمحو اسم الخليفة متى شاء، ويضع اسمه هو. السيف في يده الآن، فماذا سيفعل قلمك الصغير؟".

أمسك يوسف بالقلم مجددًا، ونظر إلى الصفحة البيضاء التي تنتظر تدوين أحداث الليلة الماضية. تذكر القسم الغليظ الذي أقسمه على المصحف أمام الخليفة: أن يكتب كل ما يسمعه، ولا يكذب، ولا ينسى. إذا كتب الحقيقة، فهو يوقع على وثيقة إعدامه بيده، لأن الوزير سيقرأ السجل حتماً. وإذا كتم الحقيقة أو غير في الكلمات، فقد خان أمانته ونكث بقسمه، وأصبح جزءاً من كذبة الخلافة المزيفة التي تدير مصير ملايين البشر بالخداع.

في تلك الليلة، عاد الخليفة والوزير إلى القاعة. كان الجو مشحوناً، والخليفة يبدو أكثر انكساراً وضعفاً، بينما كان الوزير يتبختر في خطاه كأنه الحاكم الفعلي لبغداد.

تقدم الوزير ببطء نحو الستار الحريري، ووقف على بعد إنشات قليلة من يوسف الذي كان يحبس أنفاسه في الداخل. قال الوزير بصوت مسموع، وهو ينظر نحو الستار مباشرة: "يا مولاي الخليفة... إن تدوين التاريخ أمر خطير.

بعض الأحداث يجب أن تُكتب بحبر يختفي، وبعض الأسماء يجب ألا يذكرها السجل قط. أليس كذلك يا كاتب السر؟".

شعر يوسف برعشة تجتاح أطرافه. سيف الوزير كان معلقاً على خصر الحارس الواقف عند الباب، بينما كان يوسف لا يملك سوى قطعة خشبية مدببة يقطر منها الحبر.

نظر يوسف إلى السجل المفتوح أمامه... الصفحة البيضاء بدأت تضيق، وعقله الذي لا ينسى يلح عليه بالكلمات. هل يختار الأمانة التي قد تكلفه عنقه، أم يختار الصمت المشين ليعيش غداً كشاهد زور على تاريخ أمة كاملة؟

انحبست الأنفاس خلف الستار، ولم يبقَ مسموعاً في القاعة سوى صرير قلم يوسف وهو يلامس الورق بخشخشة رتيبة تحت ضوء الشموع الخافت. كان يوسف يكتب... يكتب وعروق جبهته تكاد تنفجر من هول ما يخط.

في الخارج، التفت الخليفة "المزيف" نحو الوزير، وبنبرة حاول أن يكسوها بـ المهبة التي سُرقت منه، قال: "الكاتب يدون ما نأمره به يا وزير... والتاريخ يكتبه المنتصرون في النهاية، لا الأقلام المخبأة وراء الحرير".

ضحك الوزير ضحكة خافتة تفيض بالسم، ثم التفت وغادر القاعة متعمداً إظهار قعقعة سيفه على الأرض الرخامية.

بمجرد أن خلت القاعة، انفتح الستار الحريري ببطء. خرج يوسف وفي يده السجل الملكي، وتقدم نحو الخليفة الذي كان يجلس على عرشه منحنياً كعجوز في المائة من عمره. لم يعد يوسف يشعر بالخوف؛ لقد تغلبت الأمانة القاتلة في صدره على غريزة البقاء.

وضع يوسف السجل أمام الخليفة، وتنحى جانباً.

نظر الخليفة إلى الصفحة، واتسعت عيناه برعب ذهب بما تبقى من وقاره. لقد كتب يوسف كل شيء... تفاصيل الليلة المظلمة، اسم الخليفة المذبوح، و الوزير الذي يمسك بالخيوط. لم يترك حرفاً واحداً.

"أجننت يا يوسف؟!" همس الخليفة بصوت مرعوب وهو يتلفت حوله كأن جدران بغداد ستنقض عليه، "أنت بهذا لا تقتل نفسك فحسب، بل تهدم دولة بني العباس كلها! إذا وقع هذا السجل في يد الوزير غداً، سينشره بين الجند و الرعية، وستشتعل بغداد ناراً لا تنطفئ!".

قال يوسف بثبات لم يعهده في نفسه من قبل: "لقد أقسمتُ على المصحف بين يديك يا مولاي... أقسمتُ ألا أكذب وألا أنسى. والخطّاط إذا خان حبره، ماتت روحه قبل جسده. هذا هو التاريخ كما حدث، ولستُ أنا من يغير مسار ا لأقدار".

في تلك اللحظة، انفتح باب جانبي سري، ودخلت الجارية "ذاكرة". لم يكن في عينيها هذه المرة برود، بل كان فيهما هلع حقيقي. نظرت إلى يوسف وقالت بسرعة: "الوزير جمع حرسه الخاص.. إنهم يفتشون سوق الورّاقين عن أهلك، وحرسه يقتربون من القاعة الآن لأخذ السجل بالقوة والتخلص منك. السيف قادم يا يوسف!".

التفت يوسف إلى الخليفة، ثم إلى ذاكرة، ثم إلى السجل الذي يقطر منه الحبر كأنه جرح نازف. لقد وصل إلى اللحظة الحاسمة: السيف يقترب ليكسر القلم، فهل يستسلم صاحب الكلمة، أم أن للقلم حيلة أخرى لا يعرفها أهل السلاح؟

تبدلت ملامح يوسف في تلك الثواني المعدودة؛ زال الذعر تماماً وحلّ محله ثبات رجل أدرك أن كلمته هي أثمن ما يملك. تطلّع إلى الخليفة المزيف الذي كان يرتجف على عرشه، ثم إلى "ذاكرة" التي كانت تراقب المشهد بذهول، ومد يده نحو قنينة الزيت التي تضيء الشمعة بجانبه، وسكبها على السجل الملكي، ثم ألقى بالشمعة فوقه.

اشتعلت النار في الدفتر الملكي دفعة واحدة. تصاعدت ألسنة اللّهب لتلتهم الكلمات، وتحول السر الذي يهدد الخلافة إلى رماد يتطاير في الهواء.

صرخ الخليفة بذهول: "ماذا فعلت يا يوسف؟! لقد حرقت أمانتك ونكثت بقسمك!".

نظر يوسف إلى رماد السجل المشتعل، ونطقت عيناه بقوة وعزة أبهرت الجالسين، وقال بصوت هزّ أركان القاعة بوقار عظيم: "لم أنكث بقسمي يا مو لاي.. الخليفة الحقيقي مات وجسده تحت التراب، وأنت ميت على هذا العرش يحركك الوزير كطيف، والتاريخ لا يُكتب للموتى بل للأحياء. لقد حرقتُ الورق لأحمي بغداد من بحر من الدماء.. لكن عقلي لا يحترق".

أشار يوسف إلى جبهته وتابع بنبرة تحدٍّ تفيض بالثقة: "الوزير يملك السيف الذي يمكنه قطع عنقي في ثوانٍ، لكنه لا يملك القوة ليمحو الحرف الواحد من عقلي. كل كلمة قيلت، وكل خيانة حُيكت، محفورة هنا في ذاكرتي. إن قتلني الوزير اليوم، فستظل الكذبة تعيش معك ومع نسلك، وإن عشتُ، فسأظل أنا الشاهد الحقيقي والوحيد على هذه الحقبة".

في تلك اللحظة بالذات، تحطم الباب الخارجي ودخل الوزير شاحراً سيفه،

ومعه كوكبة من الحرس المدججين بالسلاح. نظر الوزير إلى الرماد المتصاعد على الطاولة، ثم نظر إلى يوسف بعينين تتطاير منهما شرار الغيظ، ورفع سيفه ليغرسه في صدر الكاتب الشاب.

لكن "ذاكرة" خطت خطوة للأمام ووقفت بحزم بين يوسف وسيف الوزير. نظرت إلى الوزير وقالت بنبرة حادة وواضحة: "لا تكن غبياً يا وزير. لقد حرقتُ مع يوسف نسخاً أخرى من هذا السجل وبثثناها مع ثقاة من رجال بيت الحكمة وسوق الوراقين خارج أسوار هذا القصر. إذا مات يوسف الليلة، أو إذا سُفك دمه في هذه القاعة، فإن بغداد كلها ستقرأ السر مع شروق الشمس، وستتحول سيوف الجند ضدك وضد العرش".تسمر الوزير في مكانه، وارتجفت يده التي تحمل السيف. نظر إلى يوسف الثابت كالجبل، ثم إلى ذاكرة التي كانت تبتسم ابتسامتها الواثقة الغامضة، وأدرك في تلك اللحظة المروعة أنه وقع في الفخ؛ لقد عجز سيفه القاطع عن كسر القلم، لأن الكلمة تحررت من الورق وأصبحت فكرة تسري بين الناس.

أنزل الوزير سيفه ببطء، وتراجع خطوتين وعيناه مليئتان بالهزيمة والنقمة.

التفت يوسف نحو النافذة العريضة، حيث كانت خيوط الفجر الأولى تلوح فوق دجلة، وتضيء مآذن بغداد العظيمة. لم يعد مجرد كاتب سر فقير خلف الستار، بل أصبح الرقيب الخفي على العرش، والحارس الصامت للتاريخ.

مشى يوسف ببطء نحو الباب، مرتدياً جبته الرثة ذاتها، وخرج من القصر العباسي إلى شوارع بغداد الحرة، تاركاً الملوك والوزراء خلفه أسرى لكلمات يملك هو وحده مفاتيحها. لقد تحطم السيف عند أقدام الحقيقة، وظل القلم يكتب بمداد من النور قصة النجاة والخلود.

قصة: بين شجرتين

في ذلك الزمان البعيد، قبل أن تولد الخرائط وتُحدد حدود الممالك، كان العالم عبارة عن مساحات شاسعة من الغابات الكثيفة والوديان الموحشة، حيث لا قانون يحكم البشر سوى حد السيف ونسب العشيرة. كانت الحروب تشتعل لأ تفه الأسباب، والدماء تغذي جذور الأشجار قبل أن تجف مياه الأمطار.

وعلى ضفة نهر "النسيان"، النهر الفاصل بين أراضي عشيرتين ساد بينهما الموت لقرون، نبتت شجرتان عظيمتان تداخلت أغصانهما في السماء رغم أن جذورهما نبتت في أرضين مختلفتين. في ظل هذا التلاحم الخفي، بدأت الحكاية.

كان "سيرا" طفلاً لم يتجاوز العاشرة، يملك عينين بلون أوراق الشجر في أول الربيع، عينين تشعان بنور غريب يرفض أن ينطفئ رغم أنه نشأ في أحضان عشيرة "الضوء القاطع"، العشيرة التي أقسمت على إبادة كل من يقف في طريقها، والتي كان والده يتزعمها بالحديد والنار. كان سيرا يُدرب في قاعات القصر المظلمة على الطعن في الخفاء، لكنه كلما خرج إلى الغابة، كان يتأمل الطيور ويتساءل: "لماذا يجب أن نموت لكي نعيش؟".

وفي مساء أحد الأيام، بينما كان يتدرب سراً على رمي الخناجر عند ضفة النهر، سمع حركة خلف الشجرة المقابلة. استل خنجره وتأهب، ليخرج من بين الظلال طفل في عمره، بعينين رماديتين كرماد الحرائق، وجسد مغطى بـ

الندوب الصغيرة. كان هذا "راين".

لم يتبادلا السباب، ولم يرفع راين سلاحه. كان يبدو عليه التعب، وكأن ثقل العالم كله يربض على كتفيه الصغيرين. تطلع راين إلى الخنجر في يد سيرا، ثم قال بصوت أجش سبقه سنه: "رميتك خاطئة... إنك تضع قوتك في ذراعك، بينما القوة يجب أن تنبع من مركز ثمنك لتصيب الهدف دون أن تفقد توازنك".

انزل سيرا خنجره ببطء، ودهشته غلبت خوفه. اقترب من راين، وبدلاً من أن يسأله من يكون، ابتسم ابتسامه الدافئة التي تذيب الجليد وقال: "أرني كيف إذاً".

منذ تلك الليلة، أصبح رصيف النهر مكانهما السري. اتفقا منذ اللقاء الأول على قانون غير مكتوب: لا أسماء عشائر، لا عائلات، ولا حديث عما يحدث خارج حدود هذا النهر. كلاهما كان يهرب من جحيم بيته ليجد في الآخر مرآة لروحه. تعلما معاً، تدربا معاً، وتقاسما خبزهما الصغير. كان سيرا يبني في خياله مدناً من سلام، حيث يمكن للأطفال أن يناموا دون الخوف من قعقعة السيوف، وكان راين يستمع إليه بصمت، يبتسم أحياناً، لكن عينيه الرماديتين كانتا تظلان مليئتين بالحذر، حذر من فقد أخوته الثلاثة الكبار في معارك لم يشهدها، ولم يبقَ له سواهم في ذاكرته كصور باهتة معلقة على جدران بيته الموحش.

تلك السنوات الخمس كانت الجنة الوحيدة التي عرفاها. كان سيرا يمثل لراين الروح التي تثق بالجميع، وكان راين يمثل لسيرا العقل الحاد الذي يحميه من السقوط في بئر السذاجة.

لكن الجنة لا تدوم في أرض تغذيها الحروب.

في صيف العام الخامس عشر من عمرهما، انقطعت اللقاءات فجأة. اندلعت شرارة حرب كبرى في الشمال، واستُدعي كل من يستطيع حمل السيف. عاد سيرا إلى قصره ليرى جثث أعمامه، وعاد راين ليقف فوق قبر أخيه الأخير، الذي عاد محملاً على درع مكسور. تحولت القلوب إلى حجارة، وصار الاسمان اللذان أخفياهما طوال سنين فرضاً عينياً على ساحة المعركة.

مرت سنوات أخرى، مات الكبار، وتحت وطأة الحاجة إلى دماء جديدة تقود المعارك، وُضع التاجان فوق رأسين شابين. أصبح سيرا، بفضل إرادته وقدرته الرهيبة على توحيد القلوب، زعيماً لعشيرة "الضوء القاطع". وأصبح راين، بذكائه العسكري الحاد وألمه المتراكم الذي جعله لا يرحم أعداءه، زعيماً لعشيرة "ظلال الدم".

وجاء اليوم الموعود. الصدمة الكبرى التي زلزلت كيان كل منهما.

كانت المعركة حامية الوطيس عند وادي "الغروب"، حيث التقت العشيرتان في مواجهة حاسمة. تقدم زعيم عشيرة الضوء ليواجه زعيم عشيرة الظلال في قتال فردي لحسم المعركة وحقن الدماء، وهو المبدأ الذي طالما نادى به سيرا.

وقف الزعيمان وجهاً لوجه وسط الغبار المتصاعد. لمعت الشمس على نصل سيف سيرا الطويل، بينما استل راين خنجرين طويلين أسودين. اقتربا، وحين تلاقت الأعين... توقف الزمن.

تلك العينان الخضراوان اللتان تشعان بالربيع، وتلك العينان الرماديتين كرماد

الحرائق. لم يكن هناك مجال للشك. النبض ذاته، الموقف ذاته، والندبة الصغيرة على حاجب راين التي تسبب بها خنجر سيرا الخطأ ذات يوم في صغرهما.

تراجع سيرا خطوة إلى الوراء، وسقط السيف من يده ليحدث رنيناً حاداً على الصخر. شعر وكأن الأرض تميد به، وأن كل قطرة دم في جسده قد تجمدت. "أنت... راين؟ زعيم الظلال؟ الذي قتلت عشيرته رجالي؟" همس بصوت مخنوق بالدموع والذهول.

أما راين، فقد انقبضت ملامحه، وشد على قبضة خناجره حتى ابيضت مفاصله. لم يسقط سلاحه، فالألم قد علمه أن السلاح هو الحامي الوحيد، لكن عينيه خانتاه، وظهرت فيهما لمحة من ذلك الطفل الخائف الذي التقى به عند النهر. قال بنبرة متحشرجة مليئة بالمرارة: "وأنت سيرا... صاحب أحلام السلا م، ابن الرجل الذي قطع رأس أخي الأكبر. يا للسخرية... كنا نتعلم كيف نقتل بعضنا البعض ونحن نظن أننا ننقذ أرواحنا".

كانت الصدمة أقوى من أي طعنة سيف. كل واحد منهما اكتشف أن "أخاه" السري، الملاذ الآمن الوحيد في حياته، هو في الحقيقة التجسيد الحي لعدوه الأزلي، للشيطان الذي حذروه منه منذ الطفولة.

ساد صمت مرعب في ساحة المعركة، وجنود الطرفين يراقبون بذهول زعيميهما اللذين تجمدا كالتماثيل. نظر سيرا إلى السماء، ثم نظر إلى راين، وفي تلك اللحظة بالذات، وسط ركام الصدمة، ولدت في عقله الفكرة العبقرية والمستحيلة. فكرة كانت تختمر في سره منذ سنين، لكنها الآن أصبحت طوق النجاة الوحيد من جحيم هذه الحقيقة.

تقدم سيرا نحو سيفه، ولم يرفعه ليقاتل، بل غرزه في الأرض، ونظر إلى راين بعينين تشتعلان بالإرادة والحب اللذين لا يملكهما غيره، وقال بصوت جهوري سمعه الجميع: "لن أقاتلك يا راين. ولن أسمح لهذه الحرب أن تأخذك مني مجدداً. إذا كان القدر قد جمعنا غريبين وجعلنا زعيمين، فلنصنع قدراً جديداً. لنبني قرية مشتركة... قرية تجمع عشيرتي وعشيرتك تحت راية واحدة، مكان يأمن فيه الأطفال، أول قرية نينجا في التاريخ، حيث لا يحكمنا اسم العشيرة، بل يحمينا جدار واحد".

شعر راين بزلزال داخلي. كلماتها لمست الوتر الحساس في قلبه المكسور، حلمه القديم الذي دفنه تحت ركام قبور إخوته. تطلع إلى جنوده المستنزفين، ثم إلى سيرا الذي يمد يده إليه بالسلام وسط ساحة الموت. تنهد راين، تنهيدة خرجت من أعماق ألمه، وغرز خناجره في الأرض هو الآخر، معلناً نهاية الحقبة المظلمة وبداية الحلم.

تأسست القرية. "قرية الشجرتين".

في البداية، بدا أن المعجزة قد تحققت. امتزجت العائلات، وبنى سيرا المدارس والملاعب للأطفال، وكان يسير بين البيوت يوزع ابتساماته وثقته على الجميع، مؤمناً أن الحب كفيل بمسح قرون من الدم. لكن راين لم يكن ينام الليل. كان يتولى قيادة الأمن وقوات النخبة في الخفاء. كان عقله الحاد يرى ما لا يراه سيرا؛ يرى نظرات الحقد المتبقية في عيون الكبار، يسمع الهمسات في مجالس الشيوخ، ويعلم أن السلام بدون مخالب هو مجرد دعوة مفتوحة لمذبحة جديدة.

مرت خمس سنوات على بناء القرية، وضغوط الشيوخ من العشيرتين تزداد.

كان مجلس القرية، الذي يتكون من كبار رجال العشيرتين، يرى في وجود راين وعشيرة الظلال تهديداً مستقبلياً، وبدأوا يخططون سراً لمؤامرة للتخلص من راين وتجريد عشيرته من السلاح والقوة داخل القرية، بحجة "حماية السلام المستدام".

وصلت الأنباء إلى راين عبر شبكة تجسسه الخاصة. شعر بطعنة مسمومة في ظهره، ليس من الشيوخ، بل كان خوفه الأكبر هو: هل يعلم سيرا بهذا؟ هل صديق عمره، وأخوه الذي بنى معه هذا الحلم، يشارك في التخطيط لإقصائه؟

في ليلة خريفية عاصفة، والرياح تعول بين بيوت القرية، اقتحم راين مكتب سيرا الخشبي. كان سيرا يجلس وراء مكتبه، يراجع مخططات لتوسيع المدارس.

وقف راين أمامه، قطرات المطر تنساب من معطفه الأسود، وعيناه الرماديتان تشعان ببريق مرعب، بريق الألم المتراكم الذي استيقظ دفعة واحدة. وضع يده على مقبض خنجره وقال بصوت منخفض، كهدوء ما قبل الإعصار: "سيرا... شيوخ مجلسك يخططون لقتلي وتشريد عشيرتي خلف جدران هذه القرية التي بنيناها معاً. يقولون إنها الطريقة الوحيدة لضمان السلام. جئت إليك لأسمع الحقيقة من لسانك... هل كنت تعلم؟"

توقف سيرا عن الكتابة. تيبست يده فوق الورقة.

في تلك اللحظة، أصيب سيرا بالشلل. كان يعلم بضغوط المجلس، وكان يحاول في الأيام الماضية تهدئتهم وإقناعهم بالعدول عن مخاوفهم، لكنه لم يكن يعلم أن الأمر وصل إلى حد المؤامرة الفعلية. صدمته الحقيقة، وخاف

إن تكلم بعنف أن يشعل الحرب داخل القرية التي أفنى عمره لبنائها.

ولأجل هذا الخوف... صمت سيرا.

صمت لثانية واحدة فقط. ثانية واحدة كان يحاول فيها ترتيب الكلمات لتهدئة راين وشرح الموقف.

لكن تلك الثانية... كانت كافية لكسر كل شيء.

بالنسبة لراين، الذي قضى حياته في الظلام ولا يثق بأحد سوى سيرا، كان هذا الصمت هو الإجابة النهائية. كان الاعتراف الضمني بالخيانة. انكسر آخر خيط يربطه بهذا العالم.

ابتسم راين ابتسامة مكسورة، مليئة بالمرارة التامة، وتراجع خطوة إلى الوراء وعيناه تنظران إلى سيرا كأنه يراه للمرة الأخيرة. وقال بنبرة هزت جدران الغرفة: "الصمت في موطن الحق.. تواطؤ يا سيرا. لقد صدقتُ أوهامك، ونسيتُ أن السلام مجرد كذبة يخترعها الأقوياء ليتجرد الضعفاء من سلا حهم. سأنتظرك حيث بدأنا... عند الوادي. هناك سننهي الحكاية".

استدار راين واختفى في ظلام الليل كالشبح، تاركاً سيرا يصرخ باسمه في الفراغ، بعد أن أدرك أن صمته لثانية واحدة قد كلفه الحلم كله. خرج سيرا من المكتب كالمجنون، تاركاً خلفه الأوراق والمخططات تتطاير في الهواء بفعل الرياح التي اقتحمت النافذة. كانت قطرات المطر تصفع وجهه، لكنه لم يكن يشعر ببرودتها، بل كان يشعر بنار تحرق صدره. كيف سمح لثانية واحدة من التردد أن تهدم جسراً بني في سنوات؟ كيف عجز لسانه عن النطق حين كان الصديق يبحث عن أمان؟

كانت القرية في تلك الليلة تغرق في صمت مريب، كأن البيوت خلت من سكانها، أو كأن الجميع كانوا يستشعرون الكارثة المقترحة في الأفق. لم يلتفت سيرا وراءه، ولم يستدعِ أحداً من حراسه أو رجال عشيرته؛ كانت هذه المعركة تخصه وحده، خطيئته التي يجب أن يواجهها بمفرده.

ركض باتجاه النهر، نحو وادي "الشجرتين" حيث بدأت الحكاية أول مرة. هناك ، في البقعة الفاصلة التي شهدت أحلام طفولتهما، كان راين واقفاً.

لم يكن راين يرتدي معطف القرية الموحد، بل عاد وارتدى درع عشيرته القديم، درع "ظلال الدم" الأسود الذي يحمل آثار خدوش ومعارك قديمة. كان يقف تحت المطر مستنداً بظهره إلى جذع إحدى الشجرتين العظيمتين، وعيناه الرماديتان تنظران إلى النهر المتدفق بعنف بفعل السيول. خناجره الطويلة كانت مغروسة في الأرض أمامه، تلمع تحت ضوء البرق الذي يمزق السماء بين الحين والآخر.

توقف سيرا على بعد بضع خطوات منه، وأنفاسه تتصاعد كالدخان في الهواء البارد. "راين..." هتف بصوت مبحوح، مستعطفاً: "اسمعني، أرجوك. صمتي لم يكن خيانة، كنت أحاول البحث عن طريقة لأحميك وأحمي القرية دون أن تشتعل حرب أهلية! لستُ متواطئاً معهم، أنت أخي!".

التفت راين ببطء، ولم يكن في وجهه غضب، بل كان هناك هدوء مرعب، هدوء الموتى. اقتلع خنجريه من الأرض بحركة واحدة منسابة، وقال بنبرة باردة تخترق الروح: "لقد تأخرت الكلمات يا سيرا. في عالمنا هذا، التردد لثانية في حضرة الموت يعني أنك اخترت الطرف الآخر. لقد قضيتَ عمرك تؤمن أن الحب وحده يكفي لتغيير طباع البشر، وأنا صدقتك لبعض الوقت،

نسيت أن الشياه لا يمكن أن تقنع الذئاب بالصيام. مجلساك وعشيرتك لم ينسوا الدم، ولم ينسوا قوتي، ولن يناموا ليلهم طالما أنني أملك سلاحاً يحمي رجالي".

رفع راين خنجريه، واتخذ وضعية القتال الشهيرة لعشيرته، وتابع: "اليوم، سنثبت أياً منا كان على حق. هل سلامك المبني على الثقة العمياء يستطيع الصمود، أم أن القوة التي احتقرتها هي من سيكتب السطر الأخير؟".

أدرك سيرا أنه لا مفر. راين لم يكن يقاتل ليرحل، بل كان يقاتل لأنه شعر بـ الخيانة المطلقة من الشخص الوحيد الذي فتح له قلبه. استل سيرا سيفه الطويل، السيف الذي لم يتمنّ يوماً أن يرفعه في وجه أخيه، وانطلق نحو راين.

اشتبك السلاحان في دويّ هائل تردد صداه في أرجاء الوادي. لم يكن قتالاً بين عدوين يكرهان بعضهما، بل كان أشبه برقصة تراجيدية عنيفة ومؤلمة. كل ضربة كانت تحمل وزناً من الذكريات؛ كل طعنة يتفاداها أحدهما كانت تذكر بضربة تدربا عليها معاً عند ضفة النهر ذاته.

كان راين يتحرك كظل خاطف، مستغلاً خفة حركته وعقله الحاد في توقع خطط سيرا، يهاجم من زوايا غير متوقعة ويمزق معطف سيرا بحد خناجره. بينما كان سيرا يقاتل بإرادة فولاذية، مستخدماً قوته الجسدية الهائلة وطاقته التي تنبع من رغبته في إيقاف هذه المأساة قبل فوات الأوان. لم يكن يريد قتل راين، كان يريد تجريده من سلاحه، إجباره على الاستماع.

"استيقظ يا راين!" صرخ سيرا وهو يصد ضربة قوية من خنجر راين كادت

تصيب عنقه، "يمكننا إعادة بناء كل شيء! سأطرد المجلس! سأقف معك وجه السيف!".

"لقد انكسر الجدار يا سيرا، والماء إذا تدفق لا يعود إلى النهر!" أجابه راين وهو يدور خلفه ويوجه طعنة نحو كتفه.

استمرت المعركة لساعات تحت المطر الغزير، حتى تلطخت الأرض بالطين و الدماء. جُرح كلاهما في مواضع متفرقة، وأنهك التعب جسديهما، لكن عيونهما ظلت تشتعل بذات النيران. لم يكن أحدهما شريراً، بل كلاهما كان يحمل حقيقة مطلقة؛ سيرا يحارب لأجل حلم السلام والحب الذي يجب أن يسود، وراين يحارب لحماية وجوده وقومه بقوة السلاح لأن الألم علمه أن الثقة تقتل.

وفي اللحظة الحاسمة، تفوق سيرا في اندفاعة أخيرة مدفوعة بكل ما يملكه من إرادة. استغل لحظة اندفاع راين، وبحركة خاطفة مستوحاة من التدريب القديم الذي ابتكراه معاً، التفت حول ذراع راين، وبضربة قوية بمقبض سيفه، طيّر الخنجر الأول من يده، وغرز سيفه الطويل في كتف راين الأخرى ليثبته ضد جذع الشجرة العظيمة.

سقط الخنجر الثاني من يد راين، وتراجع جسده مستنداً إلى الشجرة، والدم يتدفق من كتفه بغزارة ليمتزج بماء المطر على درعه الأسود. تلاشت حركته، وتوقف القتال فجأة، ولم يعد يُسمع في الوادي سوى صوت أنفاسهما المتلا حقة وصوت المطر الساقط على أوراق الشجر.

وقف سيرا أمامه، يمسك بقبضة سيفه المغروز في كتف صديقه، والدموع

تنهمر من عينيه بغزارة وتغسل الطين عن وجهه. لقد انتصر جسدياً، وباتت حياة راين بين يديه. كان بإمكانه سحب السيف وإعلان نهاية التهديد لسلام قريته، لكن قلبه كان يتمزق.

نظر راين إلى السيف المغروز في كتفه، ثم رفع عينه الرمادية ببطء لينظر إلى عيني سيرا الخضراوين. لم يكن في عينيه خوف أو ندم، بل ظهرت فيهما تلك الابتسامة الخفيفة والمكسورة، الابتسامة ذاتها التي كان يبتسمها عندما كان سيرا يتحدث عن أحلامه الطفولية عند النهر.

تحامل راين على ألمه، ونظر بعمق إلى روح صديقه، كأنه يريد أن يطبع ملا محه في ذاكرته للمرة الأخيرة، وقبل أن ينطق بأي كلمة قد تغير مسار هذا العالم، صمت سيرا ينتظر كلامه، لفظ راين أنفاساً متقطعة، وسال خيط رفيع من الدم من زاوية فمه ليضيع وسط حبات المطر. نظر إلى سيف سيرا المغروز في كتفه، ثم رفع عينه الرمادية ببطء شديد، لينظر إلى عيني سيرا الخضراوين اللتين غرقتا في الدموع.

في تلك اللحظة، لم يكن راين يبدو كزعيم "ظلال الدم" المخيف، بل عاد فجأة ذلك الطفل المكسور الذي التقى به سيرا عند ضفة النهر. تحامل على جرحه، وسند رأسه إلى جذع الشجرة العظيمة خلفه، وظهرت على شفتيه تلك الابتسامة الخفيفة والمكسورة؛ الابتسامة ذاتها التي كان يبتسمها قديماً حين كان يستمع لأحلام سيرا الطفولية ويبتسم شفقةً على براءتها.

شعر سيرا ببرودة السيف تنتقل إلى كفه، وكان جسده كله يرتجف وهو يرى دماء أخيه تسيل على النصل. قال سيرا بصوت مخنوق، والدموع تحرق عينيه: "لماذا يا راين؟ لماذا أجبرتني على هذا؟ كنت أريد حمايتك... كنت أريد

أن نعيش معاً في السلام الذي حلمنا به!".

تنهد راين، وصدرت من صدره خشخشة ألم مكتومة، لكن نبرته حين تكلم كانت هادئة، تحمل وقاراً ونضجاً عجيباً هز كيان سيرا. قال راين بصوت منخفض اخترق هدير المطر:

"يا لك من أحمق يا سيرا... حتى وأنت تطعنني، لا تزال تتحدث عن الحب. سلامك الذي بنيته... لم يكن سلاماً حقيقياً، بل كان قناعاً جميلاً وضعتَه فوق وجه العالم القبيح، ورفضتَ أن تراه على حقيقته. أردتَ قرية بلا مخالب، فجعلتَ من قومي صيداً سهلاً لشيوخ مجلسك."

ثبّت راين نظراته الرمادية في عيني سيرا مباشرة، ولمعت عيناه ببريق أخير، بريق النصر الفلسفي الذي حققه في هذه اللحظة، وتابع بكلمات زلزلت روح سيرا وعاش وراءها طوال عمره:

"كنتَ دائماً الوحيد الذي رآني... لكنك لم تره كاملاً. لم تفهم أن قوتي لم تكن عدوة لسلامك، بل كانت الدرع الذي يحميه من الغدر. اليوم، بجرحي هذا، جعلتُك تفهم أخيراً.. أن السيف الذي ترفعه الآن في كتفي هو الضمان الوحيد لكي تعيش قريتك غداً. لقد انتصرتَ في المعركة يا أخي، لكنني علّمتُك كيف تحمي الحلم."

مع آخر كلمة، ارتخت يد راين تماماً، وأغمض عينيه ببطء مسنداً رأسه إلى الشجرة، تاركاً سيرا يصرخ باسمه في دياجير الليل، صرخة دوت في الوادي وسقطت معها آخر أوهام البراءة، لولد من رحم هذه المأساة الزعيم الحقيقي الذي فهم أخيراً أن السلام بحاجة إلى قوة تحميه

قصة: من تحت الرماد

كان ياسر يجلس في زاوية المقهى كل يوم، يحمل فنجان قهوة بارد لا يشربه. لم يكن دائماً هكذا. قبل ثلاث سنوات، كان مديراً لشركة ناجحة، زوجاً محبّاً، وأباً لطفلين. كان الناس يسألونه النصيحة، ويستلهمون منه الطاقة، وكان صوته يملأ الغرفة صخباً وحياة حين يدخل. ثم جاء يوم واحد فقط، وأسقط كل شيء من حال إلى حال.

الانهيار

خسر ياسر الشركة في صفقة واحدة مبنيّة على الثقة العمياء في شريك خانه وسلب جهده. وفي نفس الأسبوع، تشخّص والده بمرض لا يُشفى منه. ولم تتوقف الضربات المتلاحقة هنا؛ فبعد شهر واحد، نظرت إليه زوجته في وعكة صمته وقالت بهدوء مؤلم:

"ياسر، ما عاد فيك شيء أعرفه."

لم تغادر بيته، لكن غياب الروح كان أقسى بكثير من الرحيل. نام ياسر بعدها ثلاثة أشهر بلا أحلام، ولم يبكِ، لأن الألم حين يكبر جداً يتجاوز الدموع ويتحول إلى صمت مطبق. كان يمشي في الشارع ويسير بين الحشود، يرى الناس يتحركون ويضحكون، ويتساءل بمرارة إن كان هناك خلل فيه هو

وحده. وفي ليلة باردة، جلس على طرف السرير وقال لنفسه بصدق مرعب ونفاد صبر: "ما أقدر أكمل."

لم يأتِ الإنقاذ من خطاب تحفيزي، ولا من صديق يصرخ فيه "قم وانطلق"، بل جاء النور من أضعف مكان ممكن؛ من طفلته دانة، ذات السبع سنوات. دخلت غرفته وهو مستلقٍ في الظلام الدامس، وجلست بجانبه على الأرض دون كلام. وبعد دقائق طويلة من السكون، التفتت إليه وقالت ببراءة هزت أركانه:

"بابا، أنا مش محتاجة بطل. أنا بس محتاجة أنت."

تلك الليلة، وبسبب تلك الكلمات البسيطة، بكى ياسر لأول مرة، وكأن الدموع غسلت بعضاً من سواد قلبه.

لم تتحوّل حياته في اليوم التالي بلمسة سحرية، فالتحوّل كان بطيئاً، شاقاً، وقبيحاً في أحيان كثيرة. بدأ الأمر كله بخطوة واحدة: أن يخرج من البيت كل يوم ولو لعشر دقائق فقط. ثم بدأ يسمع لوالده المريض بدل أن يهرب من جدران المستشفى الكئيبة، فاكتشف أن أباه الصامت طوال حياته كان يحمل في صدره قصصاً وحكماً لم يُروها لأحد. قضيا الأشهر الأخيرة يتحدثان كما لم يفعلا من قبل، وحين مات والده، كان ياسر ممسكاً بيده؛ فكانت تلك اللحظة أصعب لحظات حياته وأجملها في آن واحد.

حين قرر العودة، لم يُعِد بناء شركته القديمة الكبرى، بل بنى شيئاً أصغر بكثير ، لكن كل قرار فيه كان واعياً ومدروساً. والأهم من العمل، أنه بدأ يجلس مع الشباب الذين خسروا وظائفهم وتحطمت أعمالهم، يستمع إليهم بقلب صادق.

لم يكن يملك خططاً جاهزة ولا نصائح ذهبية يوزعها، كان يملك فقط جملة واحدة يواشيهم بها:

"أعرف كيف تحس. وأعرف أنك تقدر تكمل، مش لأن الأمر سهل، بل لأنك أقوى مما تظن."

صارت تلك الجلسات العفوية تنتشر كالنار في الهشيم، ثم تحولت إلى مركز منظم، ثم أصبحت حركة اجتماعية في مدينته يعرفها الجميع باسم: "من تحت الرماد".

وفي أحد الأيام، جاء صحفي شاب ليكتب تقريراً عن هذه الحركة وسأل ياسر ملحاً: "ما هو سر نجاحك؟"

ابتسم ياسر ابتسامة هادئة حملت تجاعيد السنين والدروس، وقال:

"سري أني انكسرت بالكامل، وتعلمت أن الانكسار لا يعني النهاية. يعني فقط أنك صرت مكاناً يمكن أن يدخله النور."

قصة: القدر

كانت المكتبة القديمة تقبع في زاوية منسية من شوارع المدينة، كأنها حصن منيع ضد الزمن. واجهتها الخشبية المتآكلة، واللافتة النحاسية التي انطفأ بريقها منذ عقود، كانا يخبران المارة أن بالداخل عالماً آخر لا يعترف بساعات الحائط ولا يكترث بصخب الخارج. كان آدم يهرب إلى هذا المكان كلما ضاقت به تفاصيل الحياة اليومية الرتيبة؛ فلم تكن المكتبة بالنسبة له مجرد مكان لبيع الكتب، بل كانت مخبأً سرياً تفوح منه رائحة الورق العتيق والغبار الدافئ ، رائحة تشبه حكايات الأجداد التي تمنح الطمأنينة.

في ذلك المساء الخريفي، كانت أشعة الشمس الذهبية تتسلل عبر النوافذ الزجاجية، وترسم خطوطاً من الضوء يسبح فيها الغبار الدقيق ككائنات مجهرية تتراقص. وقف آدم أمام رفوف الأدب الكلاسيكي، يمرر أصابعه على كعوب الكتب الجلدية، مستمتعاً بالهدوء المطلق الذي يلف المكان، وفجأة، انكسر هذا الهدوء بصوت رقيق يشبه حفيف أوراق الشجر في ليلة هادئة: "هل تعتقد أن أصاب المدن حظ من روايات الندم، أم أن البشر هم من يكتبون ندمهم على الجدران؟".

التفت آدم ببطء، ليجد فتاة تقف على بعد خطوتين منه، تمسك برواية قديمة غلافها مهترئ، وتنظر إليه بعينين واسعتين تشعان بذكاء غريب وعمق لم يألفه من قبل. خصلات شعرها المتمردة كانت تداعب وجهها، بينما كانت

تبتسم ابتسامة خفيفة كأنها تعرفه منذ زمن طويل. تسمر آدم في مكانه لثوانٍ بدت له كأعوام، وشعر بقلبه يترنح في صدره، في خفقة أولى غريبة لم يعهدها من قبل. كانت تلك اللحظة الساحرة التي يقرأ عنها في الروايات؛ الحب من النظرة الأولى. لقد خطفت تفكيره بالكامل، حتى أن الكلمات تاهت عن لسانه قبل أن يجمع شتات نفسه ويجيب بصوت حاول جهده أن يبدو متزناً: "أعتقد أن المدن صامتة، نحن من نملأ فراغها بالندم أو بالحب. لكن... ما الذي تقرئينه؟".

رفعت الكتاب ليرى العنوان، ومن هنا، انفتحت بوابة الحديث بينهما. لم يكن حواراً عادياً بين غريبين، بل كان أشبه بنهر يتدفق بسلاسة، فتحدثا عن الكتب، وعن الأماكن التي يهربان إليها، وعن أحلامهما الصغيرة، واكتشف أن روحها تميل إلى الحرية والسفر والانطلاق، وأنها تزور هذه المكتبة بحثاً عن النصوص التي تشبه الأرواح الحرة. مرت الساعات دون أن يشعرا، وتغير لون السماء بالخارج إلى عتمة الليل الليلكية، وعندما حانت لحظة الفراق، سألها بلهفة: "هل سأراكِ هنا مجدداً؟"، فالتفتت ونظرت إلى عينيه مباشرة بنظرة تركت في قلبه أثراً لا يُمحى وقالت: "المكتبة لا تغير مكانها، والذين يبحثون عن نفس الأشياء.. يلتقون دائماً".

أصبحت المكتبة بعد ذلك اليوم موعدهما المقدس، وتعمقت علاقتهما وتعلّق آدم بها لدرجة أنه لم يعد يرى مستقبله إلا من خلال عينيها. وفي أحد أيام الشتاء، بينما كانا يجلسان في ركنهما المعتاد، دخلت إلى المكتبة امرأة عجوز، رثة الثياب، تحمل في ملامحها تجاعيد تحكي قسوة السنين، وتتطاير من عينيها نظرات حادة تخترق القلوب. كانت تقرأ الطالع للمارة مقابل قروش

قليلة. اقتربت العجوز من طاولتهما، ونظرت إلى أيديهما المتشابكة، ثم حدقت في وجه آدم طويلاً، وقبل أن ينطق بكلمة، انحنت ونبشت في ملا محه قائلة بصوت أجش يحمل نبرة تحذير باردة: "ابتعد عنها يا بني... طريقكما لن يكتمل، والقدر لا يبني بيوتاً على أرض ستتحرك قريباً".

أثار كلامها قشعريرة مؤقتة في المكان، لكن آدم سحب يده بسرعة وابتسم بسخرية، رافضاً أن ينغص خرافة عابرة صفو حبه الكبير، وشيع العجوز بنظرات غاضبة وهي تغادر المكتبة، والتفت إلى الفتاة ليطمئنها قائلاً إن هؤلا ء يعيشون على أوهام يبيعونها للناس. واصلا حبهما، وكأن النبوءة لم تكن سوى دافع لآدم ليتمسك بها أكثر، ويغمرها باهتمامه، باحثاً في عينيها عن تكذيب دائم لكلمات العجوز.

لكن الأيام كانت تخبئ خلف سطورها ما لم يكن في الحسبان. مع مرور الوقت، بدأ آدم يلاحظ ملامح شرود وتوتر تعتري وجه حبيبته، وصمتاً غريباً يطول بينهما بعد كل ضحكة. وفي مساء عاصف، بكت بين يديه واعترفت له بالحقيقة التي كانت تخفيها؛ لقد جاءها القبول النهائي لمنحة دراسية وعملية في بلد بعيد خلف البحار، وهو الحلم الذي أفنت سنوات عمرها تبحث عنه وتتمناه، الحلم الذي تشكلت هويتها وشغفها لأجله، وأخبرته بنبرة حازمة مغلفة بالدموع أنها لن تتخلى عن هذا المستقبل من أجل أي شيء، ولا حتى من أجل الحب.

سقطت كلماتها عليه كالصاعقة، شعر وكأن جدران المكتبة العتيقة التي شهدت ولادة حبهما تضيق وتطبق على أنفاسه. نظر إليها بذهول، محاولاً استيعاب فكرة أن الحلم الذي بنياه معاً قد ينهار أمام حلم آخر يخصها

وحدها. بدأ آدم يحاول إقناعها بالبقاء، مستخدماً كل ما يملكه من كلمات ومشاعر. قال لها إن الحب الحقيقي لا يعوض، وإن بإمكانهما بناء مستقبل غني هنا، في هذه المدينة التي شهدت تفاصيلهما. عرض عليها الحلول، وتحدث بنبرة يمتزج فيها الرجاء بالخوف من الفقد، لكن كل محاولاته كانت تصطدم بجدار صلب من الإصرار. كانت تبكي، وتضم يده بقوة، لكن عينيها كانتا تنظران إلى الأفق البعيد، إلى ذلك الحلم الذي انتظرته لسنوات طويلة ولم تكن مستعدة لتركه يمضي.

مرت الأيام السابقة لرحيلها ثقيلة كالجبال. كانت لقاءاتهما قصيرة، مليئة بـ الصمت العاجز والنظرات التي تحاول سرقة الملامح لتخزينها في الذاكرة. وفي يوم الرحيل، وقف آدم في المطار وسط حشود المسافرين والغرباء. كان الهواء بارداً، وصوت الإعلانات الداخلية للمطار يتردد كأنه عد تنازلي لنهاية ع الم. عندما حانت اللحظة الأخيرة، نظرت إليه بعينين حمراوين من البكاء وقالت: "سامحني، لا يمكنني أن أعيش وأنا أتساءل كيف كانت ستكون حياتي هناك". غادرت، والتفتت لتلوح له للمرة الأخيرة قبل أن تختفي خلف بوابات المغادرة.

في تلك اللحظة بالذات، وبينما كان يقف وحيداً وسط صخب المطار، تذكر آدم وجه العجوز قارئة الطالع، وترددت في أذنيه كلماتها: "طريقكما لن يكتمل". شعر بقشعريرة تسري في جسده، وأدرك أن القدر كان يهمس له بـ الحقائق منذ البداية، لكنه اختار ألا يسمع. ومع ذلك، وسط ذلك الانكسار، تولد في داخله شعور جديد ونضج مؤلم؛ أدرك أخيرًا أن الحب الحقيقي لا يعني امتلاك الشخص الآخر أو إجباره على البقاء في قفص من أجله، بل يعني

تمني السعادة والتحليق له، حتى لو كانت هذه السعادة بعيدة عنه، خلف البحار.

مرت السنوات بعد ذلك طويلة ومضنية. تغيرت المدينة، هُدمت مبانٍ قديمة ونشأت أخرى حديثة، تغيرت ملامح آدم نفسه، وخط الشيب شعره، وظن أن الزمن والركض وراء تفاصيل الحياة اليومية كفيلان بطي تلك الصفحة وتضميد الجرح. لكنه كان واهماً؛ فكلما ساقته خطواته للمرور قرب تلك المكتبة القديمة، كان يشعر بنبضات قلبه تتسارع، ويخيل إليه أن طيفها ما ز ال واقفاً هناك بين الرفوف، ينتظره ليعيد عليهما السؤال ذاته عن روايات الندم.

في مساء شتوي هادئ من عام 2026، كانت حبات المطر تنقر على زجاج نافذته برتابة، والبرد يلف أركان المنزل. جلس آدم في مكتبه يرتب أوراقه القديمة ودفاتره المهملة، محاولاً التخلص من الأشياء التي لم يعد لها داع. نزل ليتفحص صندوق بريده الحديدي الذي يعلوه الصدأ في أسفل البناية، ولم يكن يتوقع شيئاً سوى الفواتير المعتادة، لكنه وجد بينها ظرفاً أبيض نقياً، لم يكن يحمل أي طابع بريدي أو عنوان للمرسل. لم يكن مكتوباً عليه سوى اسمه، بخط منمق يعلوه انحناء مميز يعرفه جيداً، خط لا يمكن أن تخطئه عيناه ولو مرت قرون.

ارتجفت يداه بقوة، وشعر ببرودة غريبة تجتاح أطرافه وهو يفتح الظرف ببطء كأنه يفتح صندوقاً مليئاً بالمتفجرات أو السحر. أخرج الورقة المطوية، وكانت الرسالة قصيرة، مكتوبة بحبر جاف أزرق، وتحمل تفاصيل أرّقت مضجعه لسنوات:

"أعرف أن السنوات تأخرت كثيرًا. ربما لم أعد الشخص الذي عرفته، وربما لم تعد أنت أيضًا، فقد غيرتنا الأيام والبلاد. لكن هناك أشياء لا يهزمها الوقت، ومشاعر لا تموت مهما طالت المسافات. سأكون في المكتبة القديمة يوم الجمعة عند الغروب. إن جئت، سأخبرك بكل ما لم أقله يوم الرحيل، بكل الأ شياء التي خبأتها في قلبي طوال هذه السنين".

توقف آدم عند السطر الأخير طويلاً، وكأنه يحاول التأكد من أن الكلمات حقيقية وليست وهماً من أوهام الشتاء. نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط، ثم التفت إلى النافذة حيث كانت السماء تميل إلى لون الغروب البرتقالي الممتزج بالرمادي، ذات اللون الدافئ الذي جمعهما أول مرة وسط رفوف الكتب. لم يتردد، ولم يفكر في العواقب أو فيما قد يؤول إليه هذا اللقاء بعد كل هذا العمر. طوى الرسالة بحرص، ووضعها في جيب معطفه الأيسر قريباً من قلبه، ثم فتح الباب وخرج إلى الشارع، تاركاً خلفه برودة المنزل، ومسرعاً بخطواته نحو المكتبة القديمة، حيث ينتظره الماضي والحاضر معاً عند عتبة الغروب.

قصة: تحت شجرة سنديان

لم يخطر ببال سامر يومًا أن يظهر في حياته من يستطيع أن يبعثر هدوءه القديم ويعيد ترتيب داخله من جديد. كان يجلس على عتبة البيت الحجري العتيق، يراقب الساحة الصغيرة التي حفظ تفاصيلها منذ نعومة أظفاره: البئر القابعة في المنتصف كعينٍ لا تنام، وشجرة السنديان العتيقة عند الحافة تمدُّ ظلّها كجناحٍ حنون، والبيوت الطينية المتلاصقة كأنها تتكئ على بعضها اتقاءً لريح .لكن ذلك اليوم لم يكن عادياً، فقد اجتمع أهل القرية لاختيار ممثلهم في المجلس الإقليمي الجديد الذي ستُحسم فيه قضايا الأرض والمياه وحقوق القرى الصغيرة. كان المنصب عادة يذهب لكبار السن أو لمن يملك نفوذاً، لا لشاب في الخامسة والعشرين عاش معظم حياته في الحقل بين التراب والقمح.

كان سامر لا يزال يتذكر ما قاله أبوه قبل عامين وهو على فراش المرض:

«الأرض يا سامر ليست مجرد تراب تحت قدميك هي روحك التي تمشي، وفصل من وجودك. إذا تخلّيت عنها، فقدت نفسك قبل أن تخسرها.».

وقتها لم يفهم الجملة كما فهمها اليوم.

في الجهة الأخرى من الساحة، كانت اللجنة تستعد لإعلان الاسم المختار. كان هناك حديث يدور منذ يومين عن ضغوط تُمارس لاختيار أحد رجال المال الذي وعد ببناء مشاريع استثمارية للقرية. البعض انبهر بالفكرة، والبعض الآ

آخر شعر بالخوف. أمّا سامر فقد كان يرى الأمر بوضوح: الرجل لا يريد مصلحة القرية، بل مصلحته.

اقتربت منه أمه وهي تمسح يديها بالمنديل. قالت بصوت خافت:

«إذا نادوا اسمك... لا تخاف. احكي بصوتك الحقيقي. لا تصير نسخة من حدا».

ابتسم سامر بصعوبة، فالمسؤولية كانت أعظم مما تبدو "منذ رحيل والده، صار يشعر بأن كل العيون في القرية تلاحقه كأنه الظل الباقي لرجلٍ لم يتهاون يوماً في انتزاع الحق لأهله."

ارتفع صوت رئيس اللجنة معلناً بدء الإعلان. تجمّع الناس في دائرة واسعة. كان الهواء بارداً، وكأن الساحة تُحبس أنفاسها.

قال الرئيس بعد لحظات من الصمت:

«وقع اختيار المجلس على... سامر عبدالجواد».

انطلقت همسات سريعة. بعضهم تفاجأ، وبعضهم تنفّس بارتياح. أصدقاؤه ربتوا على كتفه، وأمه أغمضت عينيها لحظة ثم فتحتها بعينين يلمع فيهما خليط من الخوف والفخر.

لم يشعر سامر بالفرحة المتوقعة. بل شعر بأن الأرض التي يقف عليها ارتفعت قليلاً... كأنها تدفعه للأمام.

في الأيام التالية، كان على سامر أن يستعد للسفر إلى المدينة خلال أسبوع واحد. تلك المدينة التي لم يزرها إلا مرة واحدة وهو طفل، والتي كانت بـ

النسبة له مثل عالم آخر: ضوضاء، أبراج، طرق واسعة، أقدم لا تتوقف عن الحركة.

بينما كان يجلس تحت شجرة السنديان يراجع النقاط التي يجب أن يناقشها في المجلس، جاءه الشيخ نادر، شيخُ الحكماء وأرسخُهم تجربة، فجلس إلى جانبه وقد ارتسم على محيّاه أثرُ السنين .

قال بصوتٍ هادئٍ كأنّه يخرج الكلام من قلبٍ جرّب الدنيا وعرف طباع أهلها:

«يا سامر... لم يخترْكَ الناسُ لأنك الأقوى، بل لأنك الأقربُ إلى قلوبهم.»

رفع سامر نظره إليه وقد تملكه الشك، وقال:

«وهل يكفي ذلك؟»

ابتسم الشيخ ابتسامة من يعرف الطريق وإن خفي على غيره، وهزّ رأسه قائلاً:

«الولاء يا بنيّ ليس قوةً تُقاس، ولا مالًا يُعدّ.

الولاء أن تقف على عهدك، ولو وقفتَ وحدك.

الناس لا تريد بطلًا خارقًا يلوّح بالقوة...

بل تريد رجلًا لا يبيعها حين تُباع القلوب.»

سكنت الكلمات في صدر سامر كوقع جرسٍ في ليلٍ ساكن، وظلّ حديث الشيخ يتردّد في ذهنه طوال الليل، يشقّ داخله طريقًا لا عودة عنه.

حين وصل سامر إلى المدينة، شعر بغربة تشبه تلك اللحظة التي يدخل فيها ا لإنسان غرفة لا يعرف فيها أحداً. كان مبنى المجلس الإقليمي شامخاً، واجهته من الزجاج الأزرق الذي يعكس ضوء الشمس كأنه بحر صامت.

قادوه إلى قاعة الاجتماعات حيث يجلس ممثلو القرى والمدن. معظمهم أكبر منه سناً، يرتدون بذلات رسمية ويضعون على الطاولة ملفات سميكة. لم يلتفت إليه أحد تقريباً؛ بدا لهم مجرد شاب صغير جاء من قرية بعيدة.

جلس سامر في مقعده يحاول أن يهدّئ من اضطراب قلبه. أخبر نفسه قائلاً:

«حضوري ليس صراعًا، بل عهدٌ أقطعه لمن منحوني ثقتهم وقلوبهم.»

بدأ الاجتماع الأول بمناقشة عامة عن توزيع المياه والميزانيات. كان سامر يستمع أكثر مما يتكلم، لكن شيئاً ما لفت نظره: كل المقترحات تصب في مصلحة المدن الكبرى، بينما تُترك القرى الصغيرة لتتدبر أمرها بالحد الأدنى.

في نهاية الجلسة، اقترب منه رجل معروف بنفوذه، اسمه مازن. جلس بجانبه وقال بابتسامة باردة:

«أنت سامر من قرية الينابيع، صح؟»

«نعم».

«سمعت عنك كلام طيب... اسمع، عندي عرض بسيط. إذا وافقت على مشروع استخراج المياه الجديد، رح يصل دعم مالي كبير للقرية، ورح تذكر الناس إنك الرجل الذي جاب لهم التطوير».

نظر سامر إلى الرجل طويلاً. قال بهدوء: «لكن المشروع رح يقلل حصتنا من

الماء و قريتنا ما عندها غير الينابيع».

ضحك الرجل وقال بأسى ممزوجٍ بالاستهزاء:

«يا بُني... السياسة لا تصلح لها العاطفة، كُن واقعيًا.»

فأجابه سامر بكلماتٍ خرجت من أعماق صدره:

«إن كانت الواقعيّة تعني أن نبيع أهلنا... فأنا أرفض، فهذا أكرم لقلبي.»

ابتسم الرجل باستهزاء ثم غادر.

ليلة التصويت كانت أصعب الليالي. عاد سامر إلى غرفته وهو يشعر بثقل في صدره. فتح النافذة ونظر إلى المدينة التي تلمع أنوارها. لوهلة، شعر أن أصوات السيارات البعيدة تشبه هدير نهر لا يعرف الرحمة.

جلس على الكرسي ودفن وجهه بين يديه. لم يكن خائفاً على نفسه، بل على الناس الذين وثقوا به.

تذكر وجه أبيه حين كان يقف تحت الشمس في موسم الحصاد، وتذكر كلام الشيخ نادر، وتذكر عيون أمه في يوم الإعلان. كل ذلك كان يختلط داخله مثل خيوط مشدودة.

قال لنفسه: «إذا انهزمت الليلة... رح أخسر حالي قبل ما أخسرهم».

في الصباح، لبس سامر ثوبه البسيط ودخل القاعة بينما كان الآخرون يرتدون أفضل ما لديهم لم يهتم أراد أن يبقى كما عرف نفسه دائماً.

قال رئيس المجلس:

«اليوم سنصوّت على مشروع المياه الجديد. نبدأ بالقرى».

بدأ المندوبون واحداً تلو الآخر بالتصويت لصالح المشروع. بعضهم تردد قليلا ً، وبعضهم رفع يده بثقة كأن الأمر لا يمسّه.

حين وصل الدور إلى سامر، توقفت الهمسات. كانوا ينتظرون صوتاً إضافياً لا يغيّر الكثير، لكنه يعطي شرعية اجتماعية للقرار.

وقف سامر. شعر بأن صوته يخرج من مكان عميق بداخله لا يعرفه:

«أنا... أرفض».

ساد الصمت، لكنه لم يتوقف. تابع قائلاً:

«لسنا أعداء البناء... ولا خصوم النهوض،

لكن من يمدّ يده ليمحو قرانا،

فقد أعلن الحرب علينا

ماؤنا ليس مورداً...

بل شريان هذه الأرض.

ومن يساوم على الحياة،

لن يسمع منّا إلا صوتاً واحداً...

صوت المقاومة.

إن قلتم إن الضعيف لا صوت له...

فاسمعوه الآن.

أنا صوته،

وأنا من سيحمي هذه الأرض حتى آخر نفس.»

كانت الكلمات بسيطة وغير منمّقة، لكنها خرجت صادقة.

رغم أن رفضه لم يغيّر النتيجة النهائية، إلا أن أثره ظهر بوضوح. بعض الممثلين أعادوا التفكير، وبعضهم طلب تعليق المشروع للمراجعة.

بعد انتهاء الاجتماع، لم يقربه أحد من أصحاب النفوذ. لكن مندوبتين من قريتين صغيرتين اقتربتا منه وقالتا بصوت منخفض:

«شكراً...».

عندما عاد سامر إلى القرية بعد أسبوعين، كانت الشمس تميل نحو الغروب. وجد أمه تنتظره عند باب البيت. ما إن رأته حتى قالت:

«ما يهمّني ما قرروه... بل ما فعلتَ أنت.»

نظر إليها بثبات وقال:

«لم أقف معهم ... ولم أقف معكم .

وقفتُ حيث يقف الحق.

وحيث يقف الحق... تقف الأرض كلها.»

اقتربت منه بخطوات بطيئة، وكأن الزمن يفسح لهما الطريق.

ربّتت على كتفه بحنانٍ يشبه العهد،

لكن يدها كانت ترتجف بدمعة فخرٍ تُحاول أن تهرب من عينيها.

وفي تلك اللحظة،

لم تكن تُربّت على كتفه فقط...

كانت تُعلن ولادة رجلٍ لا ينحني

في المساء، اجتمع أهل القرية في الساحة. وقف سامر تحت شجرة السنديان، نفس المكان الذي جلس فيه مراراً يفكر ويخاف ويتمنى.

قال لهم بصوت يسمعه الجميع:

«لم أتي بقرارٍ عظيم... ولم أغيّر مجرى العالم.

لكنني نطقتُ كلمة الحق.».

صفّق الناس طويلاً.

وفي تلك اللحظة، أحس سامر أن جذوره تمتد أعمق مما تخيّل... كما لو أن شجرة السنديان نفسها مدت إليه جزءاً من ثباتها.

جلس سامر تحت شجرة السنديان بعد انتهاء الحفل، ينظر إلى أفق القرية وقد غابت الشمس تمامًا، تاركة السماء تتلون بدرجات البرتقالي والأرجواني. شعر بأن الليل يغلفه بصمتٍ عميق، لكنه لم يكن صمتًا مخيفًا، بل صمتًا يحوي

وعدًا. كل خطوة من خطواته المقبلة كانت مرتبطة بهذه الأرض، بكل من فيها، بكل ذرة من ترابها.

فجأة، اقترب منه طفل صغير من القرية، يحمل دفتراً ممزقاً وقلمًا قديمًا. قال الطفل بخجل:

«يا سامر... أنا أريد أن أكون مثلك يومًا... أريد أن أحمي قريتي مثل ما فعلت.»

ابتسم سامر، وعاد إلى قلبه شعور الغرابة الجميل: أن أفعاله أصبحت مصدر إلهام، حتى للأطفال. قال له:

«الخطوة الأولى يا بني، أن تحب الأرض التي ولدت فيها... وأن تعرف أن كل شيء تبدأ به، مهما كان صغيرًا، يمكن أن يكبر ويحدث فرقًا.»

عاد الناس إلى بيوتهم، ولكن الساحة بقيت حية في قلب سامر. شعر بأن كل من وقف في صفه، وكل من دعم حقًا بسيطًا، كان جزءًا من قوة لا تُقهر. وهنا، تحت ظل الشجرة، أدرك أن الرحلة لم تنتهِ بعد؛ بل بدأت للتو.

في الأسبوع التالي، بدأ سامر بوضع خطط صغيرة لتحسين قريته: حفر آبار جديدة، إعادة تأهيل شبكات المياه القديمة، وتشجيع الشباب على المشاركة في حماية الموارد الطبيعية. لم يكن يبحث عن الشهرة أو السلطة، بل عن استمرارية العهد الذي قطعه على نفسه.

وفي مساءٍ هادئ، جلس مرة أخرى تحت شجرة السنديان، هذه المرة بجانبه

أمه، التي لم تفارق قلبها الغليان بالفخر. قالت له:

«أبيك كان فخور بك... وأنا اليوم فخورة أكثر.»

نظر سامر إلى السماء المظلمة، حيث بدأت النجوم تتلألأ واحدة تلو الأخرى، وفهم أن مثل هذه اللحظات الصغيرة، المليئة بالوفاء والصبر، هي ما يشكل حياة الإنسان. قال بصوت منخفض لكنه ثابت:

«لقد تعلمت اليوم... أن الحق ليس مجرد كلمة تُقال، بل فعل يُحفظ في الأ رض والقلوب.»

ثم أغمض عينيه للحظة، واستنشق الهواء العليل، كأنه يمتص القوة من كل شيء حوله: من الجذور المتشابكة للشجرة، من نهر القرية الصغير، ومن الناس الذين وثقوا به. وكان يعلم أن الطريق أمامه طويل، وأن كل خطوة ستحتاج إلى شجاعة، لكن تحت ظل شجرة السنديان، شعر بأن الأرض نفسها تدعمه وتشاركه العهد.

وفي الصباح، استيقظ مبكرًا، وخرج إلى الحقول، حيث بدأ يومه كالمعتاد، يزرع، يروي، ويعلم الأطفال الذين تجمعوا حوله أن حماية الأرض والحق مسؤولية كل واحد منهم. وهكذا، استمر سامر، بين عمله اليومي وحياته الجديدة كممثل لقريته، ثابتًا مثل شجرة السنديان، صامدًا مثل الأرض، متجذرًا في الحقيقة التي اختارها لنفسه ولأهله.

قصة خطايا السبع

لم يكن احدا يفهم شيئا أو يدرك شيئا عندما استيقظوا متفرقين في ردهة واسعة تتوسط قصرًا مهجورًا، جدرانه مغطاة بأوراق حائط مهترئة تعود لقرون مضت، وسقفه الشاهق تتدلى منه ثريا برونزية ضخمة غطاها غبار كثيف وخيوط العنكبوت. لم تكن هناك نوافذ، فقط جدران صماء من الحجر ا لأسود وباب حديدي عملاق في نهاية الردهة، نُقش عليه بوضوح رمزي مريب: سبعة أقفال ضخمة تحكم إغلاقه، وأسفلها عبارة نُحتت بالدم الجاف: "الخروج ثمنه الانعتاق.. والعبودية تضمن البقاء".

نظروا إلى بعضهم البعض برعب مشوش. لا أحد منهم يتذكر اسمه الكامل، ولا كيف دلف إلى هذا المكان، ولا ماذا فعل في الليلة السابقة. كانوا سبعة غرباء جمعهم قاسم مشترك واحد: الضياع التام.

تحرك الشاب الذي كان يرتدي سترة مخملية أنيقة، ومشى نحو قطعة مرآة مكسورة متناثرة على الأرض. التقطها، وبدأ يصفف شعره بأصابعه، متجاهلًا نظرات الرعب من حوله. التفت إليهم وقال بنبرة تفيض بالاستعلاء: "لا يهمني من أنتم، ولا كيف جئت إلى هنا مع هذه الحثالة. لكن من الواضح أن هناك خطأ ما، فشخص بمكانتي وهيبتي لا يمكن أن يُلقى في هذا المكان القذر. ابتعدوا عني ولا تلمسوا ثيابي". كان هذا الغرور تجسيدًا حيًا في جسد ذلك الشاب.

في الزاوية المقابلة، كانت هناك امرأة ترتجف، ليس من البرد، بل من غيظ مكتوم يغلي في عروقها. حين حاول رجل مسن الاقتراب منها ليسألها إن كانت بخير، صرخت في وجهه بنبرة هستيرية زلزلت جنبات المكان، ودفعته بقوة أسقطته أرضًا: "لا تقترب مني! أيها العجوز المقيت! هذا المكان اللعين يخنقني، وأنتم جميعًا تثيرون اشمئزازي! إذا لم يفتح هذا الباب الآن، سأحرق هذا القصر بمن فيه!". كانت كتلة مشتعلة من الغضب الأعمى.

وعلى مقربة من الباب الحديدي، كان هناك تاجر ذو ملامح حادة، عيناه تدوران في المكان كذئب جائع. بمجرد أن لمح صندوقًا خشبيًا صغيرًا في ركن الردهة يحتوي على بضع حبات من الفاكهة الجافة وقارورات ماء، اندفع نحوه بجسده، واحتضن الصندوق بالكامل، صارخًا بنبرة شحيحة: "هذا لي! أنا من وجده أولًا! لن يأكل أحد منكم حبة واحدة، الطعام قد ينتهي في أي لحظة، ومن يريد شربة ماء فعليه أن يدفع لي ثمنها غاليًا حين نخرج!". لقد كان الطمع يسيطر على كل خلية في عقله.

لم يكترث رجل آخر كان يجلس مستنداً إلى عمود رخامي بكلام التاجر، بل تمدد على الأرض الباردة، ووضع يده تحت رأسه مستعداً للنوم مجدداً. صرخ به الآخرون لينهض ويساعدهم في البحث عن مخرج، لكنه لم يرفع جفنه حتى، وقال بصوت خامل ميت: "وما الفائدة؟ الموت هنا أو بالخارج لا يفرق.. الجهد لا يستحق العناء". كان الكسل ينخر في عظامه حتى إنه لا يتحرك لإ نقاذ نفسه.

أما الشخص الخامس، فقد كان يراقب الشاب المغرور والتاجر بنظرات تشع بـ الغل والكره. كان يهمس لنفسه بنبرة مسمومة: "لماذا يملك هذا ثياباً أنيقة؟

ولماذا يسيطر ذلك الجشع على الطعام؟ إنهم لا يستحقون شيئاً.. أتمنى لو تتكسر المرآة في وجهه، ولو يتسمم الطعام في يد الآخر.. كلاهما مقرف ويجب أن يزولا". كان هذا الحسد الذي يأكل صاحبه قبل الآخرين.

وسط هذا الصخب، كان هناك رجل ضخم الجثة يجلس على الأرض، يلتهم ب نهم شديد حبات الفاكهة التي استطاع سرقتها من التاجر في غفلة منه. كان يمضغ الطعام بصوت مقزز، ويسيل لعابه على قميصه، وعيناه تبحثان عن المزيد دون توقف، رغماً عن المؤن الشحيحة ورغماً عن الكارثة التي يواجهونها. كان الشره يعميه عن كل خطر.

وفي هذه الأثناء، كان هناك شخص سابع يتحرك بنعومة بين الجميع. شاب ذو ملامح وسيمة ونبرة صوت دافئة ومغرية. اقترب من المرأة الغاضبة، ولمس كتفها برفق، هامساً بكلمات معسولة تداعب ضعفها العاطفي ليجعلها سلاحه، ثم التفت للتاجر بابتسامة لعوبة يحاول إغواءه بالتحالف. كان يتلاعب بمشاعر الجميع، يغزل خيوط الشهوة والتعلق العاطفي ليضمن ولاءهم ويسيطر عليهم لحسابه الخاص.

وفجأة، دوت خشخشة حادة في جدران القصر. ظهرت كتابة مضيئة باللون ا لأحمر فوق القفل الأول للباب الحديدي: "القفل لا ينكسر إلا إذا انكسر القيد الداخلي.. تغلبوا على ما في أنفسكم، يُفتح لكم الباب".

أدركوا الحقيقة المرعبة؛ هم ليسوا هنا عشوائياً. كل واحد منهم محبوس داخل خطيئته، والباب لن يفتح إلا إذا استطاع كل شخص أن يتنازل عن الضعف الذي يحدد هويته.

لكن وسط هذا الاكتشاف، تطلعت المرأة الغاضبة نحو الركن المظلم من الردهة، لتلمح شخصاً ثامناً يقف في الظلال. كان يرتدي عباءة سوداء تغطي ملامحه بالكامل، يجلس هادئاً، يراقب صراعاتهم بابتسامة خفية لا تظهر إلا في بريق عينيه. لم يكن يبدو عليه الخوف، ولم يكن يجسد أي خطيئة واضحة.

خطت المرأة الغاضبة نحوه وصرخت: "من أنت؟ وكيف جئت إلى هنا؟ لم نلا حظ وجودك من قبل!".

خرج الشخص الثامن من الظلال ببطء، وبصوت هادئ ومستقر يحمل نبرة تقشعر لها الأبدان، قال: "أنا مثلكم.. غريب استيقظ في هذا القصر. لكنني أرى ما لا ترون.. أرى أن محاولاتكم للنجاة تافهة، فلماذا تتعبون أنفسكم؟ الخطيئة هي ما يمنحكم القوة، والتخلي عنها يعني موتكم كأفراد. ابقوا كما أنتم.. ف الداخل هنا أأمن بكثير من الخارج".

لم يكن هذا الشخص الثامن مجرد غريب.. كان المحرك الخفي الذي يريد ألا يفتح هذا الباب أبداً، وبدأ من تلك اللحظة يبث سمومه بين السبعة ليمنعهم من التغلب على خطاياهم.

نزل كلام الشخص الثامن كالملح على جرح عارٍ. تلفت الغرباء السبعة حولهم، وبدأت نظرات الشك المتبادل تنهش ما تبقى من تماسكهم. العبارة المكتوبة بـ الدم على الباب كانت واضحة، لكن الخطيئة في نفوسهم كانت أعمق من رغبتهم في النجاة.

تحرك الشاب (الغرور) ونظر إلى الشخص الثامن باشمئزاز، ثم التفت إلى الآ

آخرين قائلاً: "هل تظنون حقاً أنني سأنحني لأتغير من أجل حثالة مثلكم؟ إذا كان الباب يحتاج إلى تضحية أو تغيير، فليفعلها أحدكم. أنا كامل ولا شائبة فيّ".

وفي تلك اللحظة، تقدم الشخص الثامن بخطوات وئيدة نحو الشاب المغرور، وبنبرة خبيثة تداعب كبرياءه، همس له: "أنت على حق.. ملامحك، ثيابك، عقلك.. أنت أفضل منهم جميعاً. كيف لشخص مثلك أن يتنازل ويساويهم بنفسه؟ إنهم يريدون كسر كبريائك لتصبح ضعيفاً مثلهم. تمسك بمكانتك، ف الخروج لا يليق إلا بمن يحافظ على أنفته". لمعت عينا الشاب المغرور، وازداد صلابة وعناداً، وتراجع إلى الخلف رافضاً المشاركة في أي محاولة لفتح الأ قفال.

التفت التاجر (الطمع) بقلق نحو صندوق طعامه، وبدأ يتنفس بسرعة وهو يرى نظرات الجوع تلاحقه. اقترب منه الشخص الثامن مجدداً، وهمس في أذنه بنبرة ثعلبية: "انظر إليهم.. إنهم يطمعون في ما تملك. لو فتحت هذا الصندوق أو تنازلت عن حبة واحدة، لافترسوك وجوعت أنت. الطعام هو القوة الوحيدة في هذا القصر، ومن يملك القوة يملك الحياة. خبئه جيداً، ولا تثق بأحد". جن جنون التاجر، وسحب سكيناً صغيرة كانت مخبأة في حذائه، وصرخ متوعداً كل من يقترب من ركنه.

أما المرأة (الغضب)، فكانت تدور حول نفسها كالنمر الحبيس، تضرب الجدران الحجرية بقبضتيها حتى سال الدم منهما. صرخ بها الرجل المصاب بـ (الحسد): "كفي عن الضجيج أيتها المجنونة! صراخك المقرف هذا لن يفتح الباب، أنتِ فقط تجعليننا نشعر بالبؤس أكثر مما نحن فيه.. لطالما كرهتُ

أمثالكِ الذين يظنون أن صوتهم العالي يمنحهم الحق في السيطرة".

اشتعلت المرأة الغاضبة أكثر، وكادت تنقض على الحاسد، لولا أن تدخل الشخص السابع (الشهوة). اقترب منها، وأمسك بيدها النازفة برقة مصطنعة، ونظر في عينيها بنظرة مليئة بالإغواء العاطفي، قائلاً بصوت ناعم: "اهدئي يا جمهرتي.. إنه لا يستحق غضبك. تعالي إليّ، أنا الوحيد الذي يفهم النيران التي تحرق صدرك. دعينا نتركهم يتطاحنون، ولنكن معاً.. قوتكِ وشغفي كفيلان بأن نجد مخرجاً خاصاً بنا". كانت خيوطه العاطفية تلتف حولها ليتخذها درعاً يحميه إذا ساءت الأمور.

وسط هذه الفوضى العارمة، كان الرجل المصاب بـ (الشره) قد أنهى سرقة آخر قشور الفاكهة، وبدأ ينظر بجوع نهم نحو قوارير الماء التي يخزنها التاجر. لم يكن يفكر في الأقفال، ولا في الشخص الثامن، كان عقله الباطن يصرخ: أريد المزيد، لست شبعاناً، لن أكف.

بينما ظل رجل (الكسل) ممدداً في ركنه، يراقب المشاهد كلها بعينين ذابلتين. اقترب منه الشخص الثامن، وانحنى فوق رأسه هامساً: "نم يا صديقي.. العالم بالخارج مليء بالركض العقيم والجهد الضائع. هنا، على الأقل، لست مجبراً على إثبات أي شيء لأي أحد. الموت في النوم هو أسمى درجات السلام". أغمض الكسول عينيه تماماً، مستسلماً لطاقة الموت التي تبثها الخطيئة في عروقه، ورفض أن يحرك إصبعاً واحداً حتى لو كان القصر ينهار.

فجأة، اهتزت الأرض تحت أقدامهم بعنف، واشتعل القفل الأول باللون الأحمر القاني، وصدر صوت ميكانيكي مرعب من خلف الجدران، كأن وقت الانتظار بدأ ينفد، وأن هناك عقاباً يقترب إذا لم يتحركوا.

وقف الشخص الثامن وسط الردهة، وارتفعت ضحكته الهادئة والمستفزة لتم لأ المكان، وهو يرى الأقفال السبعة مغلقة تماماً، والنفوس تزداد سواداً وتمسكاً بخطاياها.

شعر الشخص الذي يحمل خطيئة (الحسد) بنيران تأكله من الداخل وهو يرى كيف يلتف الجميع حول شهواتهم وخطاياهم. نظر إلى الشخص السابع (الشهوة) وهو يواسي المرأة الغاضبة، ونظر إلى التاجر (الطمع) الذي يحتمي بصندوقه، وقال بصوت مليء بالغل: "لماذا تملكون خيارات؟ ولماذا يملك هذا اللعين القدرة على السيطرة على المشاعر؟ أنا أكرهكم جميعاً.. أكره أنكم حتى في هذا الجحيم تجدون ما تتمسكون به، بينما لا أملك أنا سوى هذا السواد في صدري!".

ضحك الشخص الثامن بانتشَاء، وسطع بريق عينيه من تحت العباءة السوداء وهو يتحرك بخفة بين قطع الشطرنج البشرية هذه. وقف في منتصف الردهة وقال بصوت جهوري: "أرأيتم؟ الخطيئة ليست قيداً.. الخطيئة هي هويتكم الحقيقية! لو تخليتم عنها، فلن تتبقّى منكم سوى هياكل فارغة بلا روح. من منكم يستطيع العيش بلا كبرياء؟ ومن منكم يستطيع البقاء بلا طمع يحميه من الجوع؟ ابقوا كما أنتم.. الموت هنا بكرامة خطاياكم أفضل من الخروج كمسوخ عارية!".

تأثر الجميع بكلمات الشخص الثامن؛ فقد كانت تلامس الجزء الأضعف والأكثر ظلاماً في نفوسهم. تراجع الشاب المغرور يمسح الغبار عن سترته الكلاسيكية ، وأحكم التاجر قبضته على سكينه، واندفعت المرأة الغاضبة تصرخ في وجه الحاسد، بينما انزوى المتلاعب العاطفي يهمس للمزيد من الضحايا ليكونوا

درعه.

لكن الأرض اهتزت مرة أخرى، وهذه المرة كانت أقوى بكثير. سقطت بعض الحجارة من السقف الشاهق، وتحطم جزء من الثريا البرونزية على الأرض، ليصدر عنها دويٌ هائل. ومن خلف الجدران الصماء، بدأ يتصاعد صوت غريب.. صوت مياه تتدفق بعنف، كأن القصر محاط بنهر هائج أو سد على وشك الانفجار، وأن المياه بدأت تتسرب ببطء من الشقوق السفلية للجدران.

تنبه التاجر (الطمع) أولاً حين شعر ببرودة الماء تبلل حذاءه. صرخ بذعر: "الماء! القصر يغرق! طعامي سيفسد!".

التفت الجميع برعب إلى الأرضية الحجرية التي بدأت تمتلئ بالمياه الملوثة بسرعة. لكن حتى مع هذا الخطر المحدق، برزت طبائعهم المشوهة؛ انقض رجل (الشره) على ما تبقى من طعام في الصندوق المبلل ليحشوه في فمه بسرعة جنونية قبل أن يغرق، ولم يتحرك رجل (الكسل) من مكانه بل اكتفى برفع رأسه قليلاً وقال ببلادة: "دع الماء يرتفع.. الغرق أسرع من الجوع على أي حال".

أما المرأة (الغضب)، فقد فقدت السيطرة تماماً. بدلاً من التفكير في حل، ركضت نحو الشخص الثامن، وحاولت خنقه بيدها النازفة وهي تصرخ: "أنت السبب! أنت تبث السموم في عقولنا! سأقتلك قبل أن أموت!".

لكن الشخص الثامن لم يتأثر؛ تثبت في مكانه بقوة، وبحركة باردة أزاح يدها عنه وقال وهو يبتسم: "اغضبي يا أختاه.. اغضبي حتى تستهلكي آخر أنفاسك. فالعمر أقصر من أن تقضيه في محاولة إصلاح نفسكِ".

في هذه الأثناء، نظر الشاب (الغرور) إلى انعكاس وجهه في الماء المتسرب، وشعر بالرعب ليس من الموت، بل من فكرة أن تبتل ثيابه الفاخرة أو يرى الآ خرون معالم الخوف على وجهه المتكبر. كان عاجزاً عن طلب المساعدة أو مد يده لأي شخص لإنقاذه.

بدأت المياه تصل إلى الركب. الأقفال السبعة على الباب الحديدي العملاق كانت تضيء باللون الأحمر القاني كأنها عد تنازلي مرعب، والكتابة بالدم أصبحت تتوهج بشدة: "الوقت ينفد.. الطوفان لا يرحم العبيد".

وقف الشخص الثامن وراءهم، يتنقل فوق القطع الحجرية العالية دون أن تبتل أطراف عباءته، ويبث في كل ثانية عبارة جديدة تجعل كلاً منهم يتمسك بجلاده الداخلي، مانعاً أي بادرة وعي أو تضحية يمكن أن تكسر القفل الأول.

بدأت المياه تتصاعد بعنف، مغطيةً الصدور، وصرخات الرعب تداخلت مع هدير الطوفان الذي يملأ القصر المهجور. الأقفال السبعة كانت تتوهج باللون ا لأحمر الناري كأنها جمر يوشك على الانفجار، والوقت انتهى تماماً.

في تلك اللحظة الحاسمة، لفت انتباه الجميع تغيرٌ غريب في جسد الشخص الثامن. سكنت حركته تماماً، وبدأت ملامحه تتصلب، والعباءة السوداء التي كانت تخفيه بدأت تتلاشى كالدخان، ليكتشفوا الصدمة التي جمدت الدماء في عروقهم: الشخص الثامن لم يكن بشراً، بل كان مجرد مرآة ضخمة سوداء تتوسط القصر، وما كانوا يرونه طوال الوقت لم يكن سوى ظلال نفوسهم وانعكاس شرورهم المترسخة!

لم يكن هناك شخص ثامن يحبسهم، بل كانت خطاياهم مجسدة في هذا الا نعكاس، يغذي بعضها بعضاً ليضمن بقاءهم في القاع.

التفتوا جميعاً نحو الباب الحديدي، وفي اللحظة التي تلاشت فيها خدعة الشخص الثامن، شعر كل واحد منهم بوعي مفاجئ يمزق غشاوة الخطيئة.

نظر الشاب (الغرور) إلى المرآة السوداء، ولأول مرة لم يرَ وسامته، بل رأى قبح أنانيته. اندفع نحو الماء، وجلس على ركبتيه تملؤه الوضاعة والندم، وصاح بصوت حطم كبرياءه: "أنا مجرد إنسان ضعيف وخائف مثلكم.. سامحوني!". ومع كلماته، انكسر القفل الأول بدويّ هائل.

رأت المرأة (الغضب) مشهد انكساره، فشعرت بكتلة النار في صدرها تنطفئ وتحل محلها السكينة. أخذت نفساً عميقاً، ومدت يدها لتربت على كتف الحاسد قائلة: "أنا آسفة.. لن أدع الغضب يقتلنا". فانفجر القفل الثاني.

تنبه التاجر (الطمع)، ونظر إلى صندوق طعامه المبلل، فأدرك تفاهة ما يملك أمام الموت. ألقى بالصندوق في الماء وصرخ: "الجميع يأكل ويشرب مجاناً، الحياة أهم من المال!". فتحطم القفل الثالث.

تحرك رجل (الكسل) بفعل هذه الطاقات المتفجرة، ولأول مرة شعر برغبة في الحياة. سبح بجسده الثقيل نحو الباب، وبدأ يساعد التاجر في محاولة سحب العتلات، متغلباً على خموله، فانكسر القفل الرابع.

رأى (الحاسد) تعاونهم، وزال الغل من قلبه وهو يرى أن الجميع أصبحوا متساوين في المعاناة، وتمنى النجاة للجميع من كل قلبه، فطار القفل الخامس.

توقف رجل (الشره) عن حشو فمه، وبصق الطعام المبلل، شاعراً بالاشمئزاز من نهمه، والتمس الصيام والتطهير، ليتشقق القفل السادس.

وأخيراً، نظر المتلاعب العاطفي (الشهوة) إلى الخيوط التي غزلها، ورفض أن يتخذ من المرأة الغاضبة درعاً له. تقدم بجسده ليتلقى حجرًا ساقطاً من السقف حمايةً لها، مضحياً بنفسه ولأول مرة في حب حقيقي نقي، فانكسر القفل السابع والأخير.

انفتح الباب الحديدي العملاق بصرير زلزل القصر، وتدفقت المياه إلى الخارج جارفةً معها الأجساد السبعة نحو النور والشاطئ المضيء.

استيقظوا جميعاً على عشب أخضر ندي، تحت أشعة شمس دافئة تمحو برد السنين. نظروا إلى جراحهم فوجدوها قد شُفيت، والذاكرة بدأت تعود إليهم ببطء؛ تذكروا أسماءهم، وعائلاتهم، وبيوتهم. لقد كانوا بالخارج أناساً عاديين، لكنهم كانوا عبيداً لطباعهم السيئة، وكان هذا القصر هو الاختبار الذي صهر أرواحهم ليعيدهم إلى الحياة أنقى وأقوى.

التفتوا وراءهم نحو القصر، فوجدوا جدرانه الحجرية قد تحولت إلى حطام تذروه الرياح، ولم يبقَ منه قائمًا سوى شظايا تلك المرآة السوداء التي تحطمت إلى سبع قطع صغيرة، تعكس الآن نور الشمس الصافي.

تنفّسوا الصعداء معاً، وتشابكت أيديهم، ليس كغرباء جمعتهم خطيئة، بل كبشر عادوا إلى الحياة بعد أن تعلموا كيف يفتحون أبواب قلوبهم بسلام.

قصة: طبيب روحه

جلس الدكتور خالد في مكتبه الفاخر، يراقب حبات المطر وهي تضرب زجاج النافذة برتابة لا تُحتمل. كانت الإضاءة خافتة، تسقط من مصباح النحاس على الطاولة كأنها تنير جزيرة صغيرة وسط بحر من الظلام. ورائحة القهوة تمتزج برائحة الكتب القديمة والمقاعد الجلدية، لتصنع في الهواء عطراً خاصاً ، لا يشبه إلا هذا المكتب، ولا يشبه إلا هذه الساعة. الساعة السابعة مساءً.

نظر خالد إلى ساعته للمرة الثالثة في دقيقتين. كان يعرف أنها ستأتي، كان يعرف ذلك منذ الصباح، بل منذ أن فتح عينيه على ضوء الفجر الرمادي وأدرك أن اليوم يوم الثلاثاء.

رنّ جرس الباب.

دخلت ميرا.

لم تدخل كما يدخل الناس عادةً، بخطوات مسرعة أو بسلام جاهز على الشفتين. دخلت ببطء، كأن كل خطوة تكلفها قراراً. كانت ترتدي معطفاً رمادياً يلامس ركبتيها، وشعرها الداكن مُلقى على كتفها بلا اهتمام، كأنها نسيته هناك.

جلست على المقعد المقابل له دون أن تنتظر دعوة.

كانت تحمل في عينيها حزناً غامضاً وعمقاً يربك أعتى الأطباء النفسيين.

ليس حزن الباكين الذين يملؤون الغرف بأنينهم، بل حزن الصامتين الذين يحملون أثقالهم وحدهم حتى تنحني ظهورهم دون أن يشكو.

قال خالد بنبرة هادئة مهنية، وهو يفتح ملفها:

"كيف كانت الأسبوع؟"

نظرت إلى النافذة، ثم أجابت بعد صمت:

"طويلاً... كالعادة."

كانت هذه جلستهما الثانية عشرة.

في الجلسة الأولى، جلست ميرا دون أن تتكلم لعشرين دقيقة كاملة. لم يضغط عليها خالد، فقد تعلّم في سنوات عمله الخمس عشرة أن الصمت أحياناً هو أعلى درجات الكلام. حين تحدثت أخيراً، قالت بصوت يكاد لا يُسمع:

"فقدت شيئاً لا أذكره. أعرف أنني فقدته، لأن مكانه فارغ دائماً. لكنني لو سألتني ماذا كان، لن أستطيع أن أجيبك."

دوّن خالد في ملفه: *فقدان الذاكرة الانتقائي صدمة محتملة الوعي الجزئي بـ الغياب.*

لكنه في قرارة نفسه لم يرَ في كلامها حالة طبية فحسب. رأى فيها شيئاً أعمق، شيئاً يشبه صدى صوت قديم لا يعرف مصدره.

مع توالي الجلسات الأسبوعية، بدأ خالد يلاحظ تغيراً غريباً في نفسه.

هو الطبيب المحترف الذي قضى سنوات عمره يفصل بين مشاعره ومرضاه كما يفصل الجراح بين المشرط واليد، وجد نفسه ينتظر السابعة مساءً بلهفة لا تليق بطبيب.

صار يدقق في تفاصيلها دون أن يقصد. في طريقة تصفيف شعرها حين تأتي، وطريقة تركه حين تنسى. في الطريقة التي تضع فيها يدها على ركبتها حين تفكر. في لمعة الحزن في عينيها حين تصمت، وهو لمعة لا يستطيع تحديده طبياً، لأنه ليس مرضاً، بل هو شيء يشبه النجمة حين تكون على وشك الا نطفاء.

حاول مرات أن يعيد نفسه إلى مكانه المهني. فتح ملفها وقرأه كما يقرأ الطبيب لا كما يقرأ الرجل. أسقط عينيه على الأرض حين تحكي. لكن لا شيء نجح.

لقد وقع في حبها.

حب جارف وعميق وهادئ كالأنهار التي لا تبدو خطرة على السطح وتحمل في باطنها تياراً يجرف كل شيء.

في الجلسة الحادية عشرة، جاءت ميرا وهي تبدو أكثر هشاشة من المعتاد.

جلست وعيناها محمرتان، وأصابعها تعبث بطرف معطفها. قالت دون مقدمات:

"أحلم بطفلة صغيرة. لا أرى وجهها، لكنني أعرف أنها لي. وفي كل مرة أمد

يدي نحوها، يتلاشى كل شيء وأصحو."

توقفت. ثم أضافت بصوت أجش:

"خالد... هل يعني هذا أنني فقدت طفلة؟"

أمسك خالد بقلمه بإحكام، وأجاب بصوت متزن:

"الأحلام لا تعني بالضرورة ذكريات حقيقية. قد تكون رموزاً لشيء آخر."

لكنه، حين انصرفت في تلك الليلة، بقي جالساً وحده في مكتبه المظلم لفترة طويلة، ينظر إلى المقعد الفارغ، وفي صدره شيء يشتعل ولا يجد له اسماً.

في الجلسة الثانية عشرة، تلك الليلة العاصفة التي كان المطر فيها يقرع النوافذ كأنه يطالب بالدخول، قرر خالد.

لم يكن القرار مدروساً. لم يكن نتيجة تفكير أو موازنة. كان الاعتراف قد تراكم فيه جلسة تلو جلسة حتى امتلأ وأخذ يسرب نفسه إلى الخارج رغماً عنه.

نظر إليها وعيناه تفيضان بصدق لا يملك إخفاءه، وقال:

"ميرا... أعلم أن هذا يتنافى مع مهنتي وأخلاقياتها. أعلم أنني يجب أن أصمت. لكنني لم أعد أرى فيكِ مريضة. أنا أحبكِ، وأستطيع إحالتك لطبيب آخر إن أردتِ، لكنني لن أكذب بعد اليوم."

صمت.

ثم قال بصوت أخفض:

"أريد أن أعرفك خارج هذه الغرفة."

نظرت إليه ميرا.

لم تكن نظرة صدمة كما توقع، ولا نظرة إعجاب. كانت نظرة شفقة عميقة، تلك التي تصدر عن شخص يعرف شيئاً لا تعرفه، ويتألم لأنه سيضطر لإخبارك به.

امتلأت عيناها بالدموع، لكن الدموع لم تسقط.

ابتسمت ابتسامة مؤلمة، كتلك التي يبتسمها من يودّع، ثم قالت بصوت هادئ جداً، هادئ بشكل غريب لا يتناسب مع ضجيج العاصفة خارج النافذة:

"لقد حان الوقت لتستيقظ يا خالد."

"ماذا؟"

"طريقنا لن يكتمل. لأنني لست هنا."

شعر خالد ببرودة مفاجئة تجتاح جسده من أطرافه حتى قلبه، كأن أحداً فتح نافذة في منتصف الشتاء داخل صدره.

"ماذا تقصدين؟ أنتِ هنا، أمامي، أراكِ—"

وقفت ميرا ببطء.

بدأت تتراجع نحو الخلف، خطوة واحدة، ثم خطوتين. لكن الغريب أن خطواتها لم تُصدر أي صوت على الأرضية الخشبية. ونظر خالد إلى قدميها

فرأى أنها لا تمس الأرض تماماً.

ثم بدأت ملامحها تتلاشى.

ليس كمن يمشي إلى الظلام. بل كدخان يتبدد في هواء الغرفة. يداها أولاً، ثم أطراف شعرها، ثم معطفها الرمادي الذي طالما لاحظ تفاصيله. وعيناها بقيتا حتى اللحظة الأخيرة، تنظران إليه بتلك الشفقة، قبل أن تختفيا هي الأخرى.

صرخ:

"ميرا! لا تذهبي!"

لكن لم يبقَ منها سوى الهواء.

في اللحظة ذاتها، انفتح باب المكتب بقوة.

دخل طبيب مسن يرتدي معطفاً أبيض، وجهه يحمل تجاعيد من قضاها في هذه الغرف بالتحديد، وعيناه تنظران بحنو مشوب بحزن عميق. كانت ترافقه ممرضتان صامتتان تتبعانه كظلين.

نظر الطبيب إلى خالد الذي كان يقف وسط الغرفة يصرخ في الهواء، وقال بنبرة ناعمة كمن يوقظ نائماً لا يريد إفزاعه:

"هدئ من روعك يا دكتور خالد... لقد تكرر الأمر مجدداً."

التفت خالد ببطء، كمن يخشى أن حركة سريعة ستكسر ما تبقى من عالمه.

نظر إلى مكتبه.

كان المكتب هو ذاته، نعم. الطاولة والمصباح النحاسي والكتب. لكن حين

أمعن النظر بدأ يرى ما لم يرَه من قبل.

لم يكن هناك سوى فنجان قهوة واحد.

المقعد المقابل له لم يكن عليه أي أثر لجلوس أحد. الوسادة الجلدية لم تنحن، ولم يترك أحد عليها أي تجعد. لم تكن هناك حقيبة ميرا الصغيرة على الأرض بجانب القدمين، تلك التي كانت يلاحظها دائماً.

ثم رفع عيينه ونظر إلى الجدران.

لم تكن عيادته.

كانت الجدران مبطنة بوسائد بيضاء سميكة. لم تكن هناك نافذة حقيقية يضرب فيها المطر، بل مجرد لوحة مضاءة تحاكي منظر المطر. ولم يكن هناك مدخل عادي، بل باب ثقيل من الحديد طُلي بالأبيض.

غرفة في مستشفى للأمراض النفسية.

انهار خالد على ركبتيه.

لم يكن الانهيار مفاجئاً. كان كسقوط جبل يتآكل منذ سنين، حجر فوق حجر، حتى يصل يوم تسقط فيه قمته وتكشف أن الداخل كان فارغاً منذ أمد بعيد.

والحقيقة كانت تتدفق في عقله كشلال ثلجي لا يمكن إيقافه.

قبل خمس سنوات، في ليلة ممطرة تشبه هذه الليلة تماماً، كان خالد يقود سيارته على طريق جبلي. كانت زوجته تجلس بجانبه، وكانت تضحك على

شيء ما قاله، وكان يده اليمنى على المقود واليسرى تمسك يدها. وكانت بطنها يبدو صغيراً لكن واضحاً تحت معطفها، تسعة وعشرون أسبوعاً من الحمل، طفلة على وشك أن تصير حقيقية.

كانوا قد قرروا تسميتها ميرا.

ثم اندفعت سيارة من المنعطف.

الصدمة كانت أكبر من أن يتحملها إنسان. وكانت أكبر بكثير من أن يتحملها طبيب نفسي يعرف آليات الحزن كلها ويعرف كيف تنهار العقول.

ربما لأن معرفة آلية الهدم لا تجعلك محصناً منه.

فعقله، ذلك العقل الذي قرأ كل الكتب ودرس كل الحالات، التفت على نفسه بذكاء مرضي مدهش. وبدلاً من أن يواجه الصدمة مباشرة، أنشأ نظاماً وقائياً متكاملاً. خلق ميرا، لا كزوجة ولا كابنة، بل كمريضة تحمل نفس الجرح لكن من بُعد آمن. جعل نفسه الطبيب. وجعل فقدانه المجسّد في شخصية خيالية هو المريض.

وهكذا كان يجلس كل أسبوع يستمع إلى ميرا يصف حزنها ويحاول علاجها، وهو في الحقيقة يجلس أمام مرآة.

يعالج روحه المكسورة.

يقترب من الهاوية بالمقدار الذي يستطيع تحمله، أسبوعاً بعد أسبوع، دون أن يقع فيها.

أمسك خالد برأسه، ونظر إلى راحتي يديه كأنه يراهما لأول مرة. الدموع

كانت تسقط دون أن يشعر بها تسقط، دافئة على خديه الباردين.

اقترب الطبيب المسن منه بخطوات متأنية، وجلس بجانبه على الأرض دون أن يأبه لمعطفه الأبيض. ووضع يده على كتفه في صمت، ثم قال بعد لحظة:

"أنت طبيب عبقري يا خالد. حتى وعقلك غائب، استطعت أن تبني نظاماً علا جياً متكاملاً لنفسك. كم من مرضانا يتمنى لو أن عقله فعل نصف ما فعله عقلك."

لم يضحك خالد. لكنه أدرك في كلامه نبرة لا تعامل المريض كعيب.

"كم من الوقت؟" همس خالد.

"خمس سنوات تقريباً. تتحسن، ثم يتكرر الأمر."

"وميرا..."

"لم تأتِ إلى هنا أحد اسمه ميرا يا خالد. لم تكن موجودة قط."

مرت لحظات في صمت تام، لم يقطعها إلا صوت المطر المسجّل يصدر من اللوحة الجدارية.

ثم وقف خالد.

وقف ببطء، لكن بثبات. نظر إلى المقعد الفارغ حيث كانت ميرا تجلس في كل مرة. ولم يحاول أن يتخيلها هناك مجدداً. تركه فارغاً.

ربما للمرة الأولى بحق.

نظر إلى النافذة المزيفة، وكان المطر المرسوم عليها قد صار يخف تدريجياً، كأن العاصفة قررت أن تمنح الليل قليلاً من الهدوء.

أخذ نفساً عميقاً.

وقال:

*"لقد ابتكرتكِ لأنجو من موتي، وشفيتُ منكِ لأبدأ عزائي.

*فالطب لا يُحيي الراحلين، لكنه يُعلّم الأحياء كيف يدفنون موتاهم بسلام.

ظلت الجملة تتردد في أرجاء الغرفة، كصدى يملأ مساحة كانت فارغة منذ وقت طويل.

والطبيب المسن أبقى يده على كتف خالد دون أن يقول شيئاً.

لأن بعض اللحظات لا تحتاج إلى كلام، بل تحتاج فقط إلى شاهد.

قصة: فلسفة الشطرنج

كان المساء باردًا ساكنًا كأن الزمن توقف عند حافة النافذة يراقب بصمت ما تبقّى من يومٍ ميت في الغرفة الضيقة التي لا يدخلها الضوء إلا كزائرٍ خجول جلس سليم أمام طاولةٍ خشبيةٍ عتيقة يحدّق في رقعة شطرنجٍ وُضعت على قطعة قماشٍ باهتة لم يكن ثمة شيء غير الرقعة وصوت عقارب الساعة التي تتقدّم ببطءٍ متعب كجنديٍ أنهكته المعارك ولم يعد يؤمن بالنصر الخشب متآكل عند الأطراف والقطع مطفأة اللون كأنها شهدت حروبًا كثيرة لكن سليم لم يكن يرى الخشب بل ما وراءه كان ينظر كما ينظر الفلاسفة إلى الفراغ حين يحاولون أن يفهموا أنفسهم أو عبث الوجود الذي لا يُفهم كانت القهوة أمامه قد بردت ولم ينتبه إليها قال في نفسه يا لهذه الرقعة الصغيرة كم تشبه العالم بأرباعه وحدوده بخطوطه التي لا يُسمح بتجاوزها وبقطع تتحرّك كما لو كانت تملك إرادة وهي في الحقيقة لا تملك شيئًا ثم ابتسم ابتسامة باهتة وأشعل سيجارة فتصاعد الدخان في خطوطٍ متعرّجةٍ تشبه أفكاره منذ ثلاثة أعوام لم يغادر هذا البيت ومنذ ثلاثة أعوام لم يكتب سطرًا واحدًا وهو الذي كان ذات يومٍ فيلسوفًا شابًا ينادونه صوت العقل المتمرّد لكن العالم كذّب و الحياة سقطت أمامه مثل لعبة خاسرة منذ البداية تذكر أنه نسي الاتصال بأمه منذ أيام وفكر أن يتصل ثم لم يفعل ولا يعرف لماذا وفي نفس اللحظة تذكر جدّه الرجل الذي علّمه الشطرنج أول مرة وقال له حينها يا سليم لا تلعب لتفوز العب لتفهم فكل نقلةٍ هي فكرة وكل خسارةٍ درسٌ لا يُمحى شعر

أن الجدّ ما يزال في الغرفة جالسًا في الزاوية يراقبه بصمتٍ كعادته بابتسامةٍ غامضةٍ لا تقول شيئًا ولا تخفي شيئًا مدّ يده ببطء وأمسك بالبيدق الأبيض تأمّل وجهه الصغير وقال يا صغيري كم مرة تموت لتصل كم مرة تخرج من صقك لتُبتلع ثم وضعه في المنتصف كمن يضع قلبه على طاولة العالم كانت هذه أول نقلة بعد صمتٍ طويل ارتجف سليم قليلًا وشعر أن شيئًا يتحرك في أعماقه ليس فرحًا ولا خوفًا بل إحساسٌ غريب وقال في سرّه ربما لم أعتزل العالم ربما العالم هو الذي اعتزلني كان الليل يتمدّد ببطء فوق الجدران والظ لال تتسلل كأفكارٍ خجولة وبين نقلةٍ وأخرى بدأ يسمع صوتًا خافتًا كأن الرقعة تهمس له بلغةٍ لا يعرفها بعدها رفع رأسه نظر حوله فلم يجد أحدًا لكنه أدرك أن اللعبة بدأت وأنه لم يعد وحده كان يسمع الصوت كلما اقترب من الرقعة كلما لمس قطعةً من الخشب أو اقترب من فكرة تذكّر كلام الجدّ احذر يا بنيّ أن تظنّ اللعبة لعبة فهنا تُختصر الحياة في مربعاتٍ صغيرةٍ لا ترحم و الملوك يموتون كما يموت الفقراء والبيادق تحلم بما لا يُعطى لها ومنذ تلك الليلة لم يعد يرى في الشطرنج لعبة بل نوعًا من الوحي الصامت عاد من ذكرياته على صوت الساعة نظر إلى الرقعة ثم همس رحلت يا جدي لكنك تركت لي رقعتك كي أكمل السؤال وحدي أغمض عينيه وشعر كأن الجدّ يجلس أمامه ويحرك قطعة الفيل وحين فتح عينيه كانت القطعة قد تحركت فعلًا تجمّد الدم في عروقه وابتسم ابتسامة غامضة لم يعرف إن كان ما يحدث وهمًا أم يقظة لكنه أدرك أن شيئًا في اللعبة بدأ يتنفّس قال بهدوء إذًا لنبدأ يا جدّي دعنا نكمل الدرس الأخير ومع تقدّم اللعب لم تعد القطع مجرد رموز بل مرايا الفيل فكرة ملتوية والحصان جنونٌ منظم والملك خوفٌ هش وكل نقلة كانت تفتح سؤالًا وكل سؤال يفتح بابًا من الغموض حتى وصل إلى

لحظة ترك فيها الملك يسقط وقال ومن قال إن الهزيمة ليست طريقًا إلى الفهم ثم أطفأ المصباح وبقي ضوء القمر يسقط على الرقعة وفي الظلّ تحرّكت قطعة صغيرة وحدها استيقظ على رائحة المطر وكانت الملكة قد تغيّرت مكانها ثم ظهرت ليلى كفكرةٍ خرجت من ذاكرته وقالت له أنا التي حركت الملكة لم تكن امرأة فقط بل صوته الذي كتمه حدسه الذي خنقه قالت الملكة تتحرك في كل الاتجاهات لأنها تعرف أن لا طريق واحد للحقيقة حينها أدرك أن الفكر وحده لا يكفي وأن الحياة تحتاج جرأة الحركة لا دقة التحليل فقط اختفت لكن أثرها بقي بعدها واجه ظله الذي قال له أنا أنت حين تصمت ودخلا في لعبةٍ جديدة لعبة بلا أبيض ولا أسود كلها رمادية وهناك فهم سليم أن صراعه الحقيقي ليس مع العالم بل بين المعرفة والسكينة بين أن يفهم كل شيء أو أن يعيش فقط وفي النهاية استيقظ ليجد الرقعة مبعثرة كأن اللعبة انتهت دون إعلان لم يعد يريد أن يفهم أو يربح بل فقط أن يكون نظر إلى نفسه في المرآة فرأى شيئًا ثالثًا لا نورًا ولا ظلامًا بل صفاء الرماد بعد احتراق طويل سمع صوتًا داخليًا يقول الرقعة لم تكن سوى مرآة لم تكن تلعب لتربح بل لتعرف أنك كنت تلعب منذ البداية ضحك لأول مرة بصدق ثم رفع الرقعة ووضعها جانبًا لم تعد تعني شيئًا أراد فقط أن ينام بلا معنى فأغمض عينيه ولأول مرة لم يكن يفهم أو يبحث أو ينتظر كان فقط هنا ذلك الذي ظلّ يطارده عمرًا كاملًا، وجده أخيرًا حين توقّف عن اللعب

قصة: امي

كانت كل صباح تفوح في المنزل رائحة البخور الخفيف الذي يحرص "كريم" على إشعاله ليقلل من رطوبة البيت القديم.

وقف كريم أمام الموقد، ملامحه هادئة، يرتدي قميصاً منزلياً مريحاً. وضع الفنجانين على صينية نحاسية صغيرة، وبجوارها بضع قطع من البسكويت الذي يفضله. ضبط هندام قميصه، وابتسم ابتسامة دافئة وهو يحمل الصينية ويتجه نحو الغرفة الداخلية.

طرق الباب الخشبي ثلاث طرقات خفيفة بظفر إصبعه، كعادته دائماً، ثم دفعه برفق ودخل:

"صباح الخير يا أمي.. تأخرت عليكِ؟ القهوة اليوم مضبوطة تماماً كما تحبينها ، والطقس في الخارج يبدو جميلاً."

وضع الصينية على الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير. في زاوية الغرفة، حيث يتسلل شعاع شمس باهت من خلف الستائر الدانتيل الثقيلة، كان هناك المقعد الهزاز. فوقه، يجلس جسد ساكن تماماً، مغطى برداء بيتي صوفي شتوي يرتفع حتى الرقبة، وشال عريض يلتف حول الرأس والوجه، لا يظهر منه سوى ظلال غامرة.

تقدم كريم، وعدل طرف الشال برفق شديد، كأنه يخشى أن يوقظها من نوم

عميق. جلس على مقعد صغير مقابل لها، وأمسك فنجانه، وبدأ يتحدث بصوت منخفض ومحبب:

"تعرفين يا أمي؟ البث المباشر لعملي البارحة سار بشكل ممتاز. رئيس الشركة أرسل لي بريداً يشكرني فيه.. آه، وكدت أنسى! الجارة الجديدة في الطابق العلوي، ليلى، ألقت عليّ التحية مجدداً وأنا أشتري الخضار. تسألني دائماً عن سبب غيابكِ، فقلت لها إن برودة الجو تتعب عظامكِ وأنكِ تفضلين الراحة."

ساد الصمت الغرفة، صمت طويل لم يقطعه سوى صوت كريم وهو يرتشف رشفة من قهوته، وينظر إلى الجسد الساكن بعينين تفيضان بالحب والدفء، وكأنه يستمع إلى أعذب الأجوبة.

بينما هو جالس يحكي لها عن تفاصيل يومه، سُمع صوت طرقات متتالية وخفيفة على باب الشقة الخارجي.تنهّد كريم بأسف خفيف، ووضع فنجان قهوته على الصينية بنعومة فائقة لكي لا يصدر صوتاً يزعج سكون الغرفة. التفت إلى الجسد الصامت على المقعد الهزاز، وابتسم باعتذار: "ثوانٍ معدودة يا أمي.. أرى من بالباب وأعود لتكملة حديثنا".

خرج من الغرفة، وأغلق الباب خلفه بحرص شديد حتى استقر اللسان في القفل دون ضجيج. مشى عبر الردهة المظلمة بخطوات واثقة حفظت مواضع الخشب الذي يصدر صريراً في الأرضية، فتجنبها ببراعة.

فتح باب الشقة الخارجي مواربا إياه بجسده، ليتفاجأ بـ ليلى، الجارة الشابة. كانت تقف ممسكة بوعاء زجاجي دافئ تفوح منه رائحة "كيك الفانيليا و البرتقال" الطازجة. كانت تبتسم، لكن عينيها كالعادة تحاولان استكشاف ما

وراء كتفه، وتتأملان الردهة المعتمة خلفه.

قالت ليلى بصوت مبهج: "صباح الخير يا أستاذ كريم.. شممت رائحة قهوتك الزكية منذ قليل، وقلت لنفسي لا يصح أن تشربا القهوة أنت والدتك الفاضلة دون شيء حلو.. صنعت هذا الكيك الآن".

شحب وجه كريم قليلاً، لكنه حافظ على ابتسامته الهادئة الودودة، ومد يده ليأخذ الوعاء ببطء: "صباح النور يا آنسة ليلى.. هذا كرم كبير منكِ، شكراً جزيلاً.. أمي ستسعد به جداً، هي تحب كيك البرتقال".

استغلت ليلى اللحظة، وتراجعت خطوة للخلف وهي تشير بفضول نحو الداخل: "بالمناسبة يا كريم.. الجو دافئ اليوم والشمس جميلة، لماذا لا تخرج طنط سعاد لتجلس في الشرفة قليلاً؟ لقد اشتقت لرؤيتها، والجميع في البناية يسألون عنها وعن صحتها.. حتى أنني فكرت أن أدخل لأسلم عليها الآن إن لم يكن في ذلك إزعاج؟".

في تلك اللحظة، ومن وراء ليلى، اهتز صمت السلم الخشبي للمبنى بصوت خطوات ثقيلة وحازمة تصعد الدرج.. خطوات رجل كبير في السن، يتنفس بصعوبة ويعتمد على عصا غليظة تضرب الأرض بقوة.

التفتت ليلى لترى من الصاعد، بينما تجمدت الدماء في عروق كريم وهو يرى ملامح القادم من بعيد عبر ضوء السلم الخافت.. إنه العم حسن، أخو أمه، الذي لم يره منذ سنوات.

تصلبَ كريم في مكانه، والوعاء الزجاجي في يده يكاد يسقط. توقفت ليلى عن الحديث، والتفتت هي الأخرى لتنظر إلى الرجل الذي بدأ صوته المتهدج

يملأ الفراغ: "كريم؟ هل أنت هنا؟ افتح الباب يا ابن أختي!".

لم يجد كريم مفراً. أشار لليلى بيده بحركة عصبية غير متزنة أن تنتظر، ثم تراجع خطوة للوراء وفتح الباب على مصراعيه ليظهر العم حسن، وجهه محتقن بالدماء، وعيناه تفتشان عن شيء ما في عمق الشقة.

دخل العم حسن دون استئذان، تبعه كريم الذي كان يرتجف، بينما بقيت ليلى واقفة عند العتبة، تراقب المشهد بفضول ممزوج بقلق غامض.

"أين هي يا كريم؟ أين أختي؟ اتصلت بك مئة مرة!" صرخ العم وهو يتجه بخطوات واسعة نحو غرفة النوم.

كريم كان يلاحقه، صوته يتحول إلى استجداء طفولي: "خالي، أرجوك.. هي نائمة! لا توقظها، إنها تتعب بسرعة، أرجوك يا خالي!".

وصل العم حسن إلى باب الغرفة، وقبل أن يلمسه كريم، كان الخال قد دفعه بقوة أرضاً، ودفع الباب ليفتحه على آخره.

توقف الزمن في الغرفة.

انكسر الضوء الذهبي الذي كان يغمر المكان عندما دخل الخال وليلى التي تبعتهما. ساد صمت مطبق، لم يقطعه سوى صوت أنفاس كريم المتهدجة وهو ينهض من على الأرض.

رأى الخال المقعد الهزاز، ورأى "سعاد". كان الجسد يجلس بوقار، مغطى بـ الشال، لكنه لم يكن يتحرك. لم تكن هناك أنفاس. وبفعل الحركة المفاجئة للباب، انزلق الشال عن الرأس قليلاً.

شهقت ليلى وتراجعت للخلف، وضعت يدها على فمها وهي ترى الجمجمة المكسوة بجلد جاف، والشعر المستعار الذي انحرف ليظهر فراغ العينين. الغرفة تفوح منها رائحة لا يمكن وصفها، مزيج من الكافور والموت البطيء.

لم يصرخ الخال. تجمد في مكانه، وعيناه الجاحظتان لا تصدقان ما تراه.

أما كريم، فقد مشى ببطء نحو المقعد، متجاهلاً وجود الجميع. جلس على ركبتيه أمام الهيكل العظمي، وأمسك بيده العظمية التي كانت تستند على مسند المقعد. مسح على تلك اليد بعناية وحنان، ثم نظر إلى خاله بابتسامة باهتة ومؤلمة:

"ألم أقل لك يا خالي إنها نائمة؟ هي لم تغادر أبداً.. لقد أخبرتها بكل شيء، كل تفاصيل يومي.. إنها الوحيدة التي لم تتركني يوماً".

في تلك اللحظة، لم يعد العم حسن يرى في كريم مجرماً أو مختلاً. رأى شاباً مهشماً بالكامل، روحاً تاهت في ذكريات ماضٍ رفضت أن ينتهي.

أطبق كريم يديه على يد أمه، وأغمض عينيه، ورأسه يميل على كتفها العظمي، وكأنه يريد أن يغفو معها في ذلك السكون الأبدي الذي خلقه لهما. في زاوية الغرفة، تلاشت أصوات العالم الخارجي، ولم يبقَ سوى صمت البيت القديم، وحبٍّ لم يعرف كيف يواجه حقيقة الفقد، فقرر أن يسكنها إلى الأبد

قصة: التوقيع الأخير

في منتصف الليل، حيث يتثاءب السكون في أزقة المدينة الضيقة، كان سامي الوراق يقف وحيداً داخل مطبعته العتيقة. كانت رائحة الحبر القديم و الورق المصفر تملأ رئتيه، تلك الرائحة التي رافقته طوال عقود من الخيبات المتتالية.

امتدت يده المرتجفة لتمسح الغبار المتراكم فوق شهادة دكتوراه دولية في الفنون التشكيلية وكيمياء الأحبار، شهادة معلقة بجدار متهالك لم تعد تقي صاحبها برد الشتاء أو جوع النهار. تنهد بمرارة، وقلب الشهادة على ظهرها الأ بيض ليستخدمه في حساب فاتورة الكهرباء المتأخرة التي باتت تهدد بقطع شريان الحياة الوحيد عن مطبعته.

وفي تلك اللحظة الحرجة، قطع صمت المكان رنين هاتفه المحمول؛ كان اتصا لاً من المستشفى يخبره بضرورة سداد تكاليف الفحوصات العاجلة لابنته لينا. انقبض قلبه، وشعر بقلة الحيلة تسحق ضلوعه. تجمعت الدموع في عينيه وهو ينظر إلى الآلات الساكنة حوله، آلات تبدو مثله تماماً، قادرة على العطاء ولكنها مركونة في زاوية النسيان.

كانت الفواتير تتراكم على مكتبه الخشبي المتآكل كأنها جبال من الهموم لا يمكن زحزحتها. تذكر أيام دراسته، كيف كان يرى المستقبل مشرقاً وواعداً، وكيف كان أساتذته يتنبأون له بمستقبل باهر في عالم الفن. والآن، تحول كل

ذلك البريق إلى غبار يغطيه الندم.

خرج من باب المطبعة الخلفي ليقف في الممر الضيق، مستنشقاً الهواء البارد لعله يطرد الضيق من صدره. كان يعرف أن الخيارات أمامه تكاد تنعدم، وأن الصمت الذي يغلف ليله ليس سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة النفسية التي ستغير مجرى حياته بالكامل.

عاد سامي إلى منزله يحمل ثقل العالم على كتفيه. على مائدة العشاء البسيطة، جلس في مواجهة زوجته نادية. ساد صمت ثقيل لم تقطعه سوى أصوات الملاعق والأنفاس المكتومة. نظرت نادية إلى عينيه المجهدتين، وأرادت أن تسأل، لكنها فضلت الصمت الذي بات لغة مشتركة بينهما لحماية ما تبقى من سلام عائلي هش.

استدخل سامي في فلاشباك عميق، أعاد لذهنه لحظة تسلمه جائزته الفنية الأ ولى في قاعة الاحتفالات الكبرى، كيف كانت الآمال تحلق به عالياً في سماء ا لإبداع، وكيف تهاوت تلك الأحلام لتستقر في قاع مطبعة شعبية تعاني سكرات الموت السريري.

مد يده ليمسح على رأس ابنته الصغيرة التي نامت على المقعد المجاور للمائدة، كان وجهها الشاحب يذكره دائماً بمدى تقصيره، وبأن الأماني وحده لا تطعم خبزاً ولا تشتري دواءً. التفتت إليه نادية بنظرة عتاب خفي، نظرة لم تحمل كلمات، لكنها كانت أثقل من أي لوم مسموع.

كان البيت يفوح برائحة الرطوبة، والجدران المقشرة تحكي قصة كفاح طويل لم يثمر سوى عن مزيد من الديون. حاول سامي أن يبتسم ليطمئن زوجته،

لكن عضلات وجهه خانته، فبدت ابتسامته كمرثية حزينة لأيام مضت ولن تعود.

قام من مقعده دون أن يكمل عشاءه، متوجهاً إلى شرفته الصغيرة المطلة على الشارع العام. راقب المارة والسيارات المسرعة، وتساءل إن كان كل هؤلا ء البشر يحملون في صدورهم مثل هذا التمزق، أم أنه الوُجود الوحيد الذي يغرق في وحل العجز.

تتحرك تروس الآلات القديمة في مطبعة سامي بإيقاع رتيب يشبه دقات ساعة جنائزية. كان يعتبر تلك الآلات جزءاً من روحه، فهي لا تتذكر من مروا عليها، بل تنفذ ما يُطلب منها فقط دون وعي أو تأنيب ضمير.

زاره في الصباح مندوب من شركة طباعة حديثة ليعرض عليه وظيفة موظف تشغيل بسيط براتب ضئيل، فشعر بكبريائه الأكاديمي يُجرح بعمق، ورفض العرض برأس مرفوع وجيب فارغ. كان يعلم أن قبول هذه الوظيفة يعني التخلي النهائي عن صفته كعالم وفنان، والتحول إلى مجرد ترس آخر في آلة رأسمالية لا ترحم.

في المساء، كان يقف بجوار سرير لينا في المستشفى، يستمع إلى الطبيب وهو يسرد أرقاماً فلكية لعلاجات وأدوية لا يملك سامي منها درهماً واحداً، ليرى وجه ابنته الشاحب يتحول في مخيلته إلى لوحة بيضاء تنشد الإنقاذ قبل فوات الأوان.

كانت دقات الأجهزة الطبية تتداخل مع دقات تروس مطبعته في عقله، كأنما هناك سباق مع الزمن لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. شعر بالبرودة تتسلل إلى أطرافه

وهو ينظر إلى سقف الغرفة الأبيض، متسائلاً عن الجدوى من المثالية الأخلا قية في عالم يترك الأطفال للمرض لمجرد عجز آبائهم عن الدفع.

عندما غادر المستشفى، كانت شوارع المدينة قد بدأت تخلو من المارة. مشى ببطء، والوعي بثقل مسؤوليته يضغط على كاهله. لم يكن يرى أمامه سوى خيارين: إما الاستسلام الكامل وإعلان العجز، أو البحث عن مخرج، حتى لو كان هذا المخرج خارجاً عن المألوف.

مع اقتراب الليل، طرق أبو طارق باب المطبعة. دخل بابتسامته الثعلبية وجسده المكتنز، حاملاً معه صندوقاً خشبياً مبطناً بالقطيفة. أخرج منه لوحة زيتية تالفة جزئياً لرسام شرقي شهير، وقال بنبرة خافتة: "نريد ترميمها، والأ هم.. إعادة رسم التوقيع الأصلي بدقة لا تكشفها المختبرات".

تأمل سامي اللوحة، وعرف بخبرته الكيميائية أن الأحبار المطلوبة تحتاج لتركيبة سرية يملك مفتاحها. شعر بالخوف يتسلل إلى أطرافه؛ فهذه أول خطوة في وادي التزوير المظلم. لم تكن اللوحة مجرد قماش ملون، بل كانت اختباراً حقيقياً لمبادئه التي عاش يدافع عنها طوال حياته الأكاديمية.

انتفض كبرياؤه لثوانٍ، فرفض العرض وأغلق الباب خلف الرجل، ثم جلس في ظلام مطبعته وحيداً يستمع إلى صوت ضميره الذي بدأ يتآكل تحت وطأة الحاجة. تذكر صوت الطبيب، وتذكر فواتير العلاج، وشعر بأن كبرياءه الأ كاديمي ما هو إلا رفاهية لا يملك ثمنها الآن.

أمسك بالقلم وخط بعض الخطوط العشوائية على ورقة أمامه، كأنما يحاول الهروب من التفكير في عرض أبو طارق. لكن صورة الصندوق الخشبي الفاخر

والأموال التي يمكن أن يجنيها من وراء هذا العمل ظلت تلاحقه في الظلام، متجسدة كشيطان يعرض عليه النجاة مقابل جزء من روحه.

عندما انتصف الليل، كان سامي لا يزال جالساً في مكانه، لم يتحرك ولم يشعل الأضواء. كان الصراع الداخلي قد وصل إلى ذروته، وعرف في أعماقه أن الرفض الذي أبداه في البداية لم يكن سوى محاولة أخيرة لإقناع نفسه بأنه لا يزال رجلاً شريفاً.

تسارعت الأحداث عندما تلقت نادية اتصالاً يفيد بتدهور حالة لينا الصحية ونقلها لغرفة العناية المركزة. هرع سامي إلى المستشفى، وجلس في الممر البارد، مطأطأ الرأس، ويداه فارغتان تماماً لا تحملان سوى اليأس. كانت الممرضات يمررن من أمامه بسرعة، وكل نظرة منهن كانت تبدو له كأنها اتهام مباشر بعجزه كأب.

تحت وطأة هذا الانهيار النفسي الكامل، شعر بأن الجدران البيضاء تضيق عليه وتكاد تلتهم أنفاسه. لم يعد هناك متسع للمثالية التي لم تقدم لابنته سوى الشحوب والألم. أخرج هاتفه بيد ترتجف، وضغط بحسم على الرقم الذي تمنى يوماً ألا يتصل به.. رقم أبو طارق.

جاءه الصوت من الطرف الآخر هادئاً، واثقاً، ومرحباً، وكأن الثعلب كان يعلم يقيناً أن الفريسة ستسقط في الشباك عاجلاً أم آجلاً. لم يتبادلا الكثير من الكلمات؛ فالصمت المخيم في ممر المستشفى كان يشرح كل شيء. اتفقا على اللقاء في المطبعة بعد ساعة واحدة.

مشى سامي في طريق عودته إلى المطبعة كجسد بلا روح، كانت خطاه ثقيلة

، لكن عقله كان يعمل بسرعة فائقة، يزن الخسائر الأخلاقية مقابل حياة ابنته. عندما فتح قفل الباب الخارجي، شعر أن المفتاح لا يفتح باباً من الخشب، بل يفتح بوابة الجحيم الذي اختار السير فيه طواعية.

جلس خلف مكتبه بانتظار وصول الصندوق المخملي، وفي تلك اللحظات، بدا له أن الحبر المنسكب في زوايا المكان يتشكل على هيئة ظلال سوداء تترقب ولادة المجرم الجديد الذي سيمحو بكفاءته العلمية كل أثر للحقيقة.

عاد سامي للمطبعة يحمل اللوحة التالفة، وبدأت هنا معركته مع الكيمياء و الفن. قام بتحليل المواد بدقة مذهلة، أحضر الأصباغ العضوية، واختبر تقادم الورق عبر تعريضه لأبخرة معينة تحاكي مرور العقود.

اكتشف في تلك الليلة أن علمه الأكاديمي الذي همشه المجتمع هو السلاح المثالي لارتكاب الخديعة الكاملة. لم يكن الأمر مجرد تقليد أعمى، بل كان إعادة خلق للماضي بأدوات الحاضر. انهمك في خلط المركبات، يراقب تفاعل الألوان تحت الضوء الخافت، ويقيس نسب المذيبات بقطارة دقيقة كمن يحضر ترياقاً للحياة، أو سُمّاً للضمير.

أمسك بفرشاته الدقيقة وخط أولى اللمسات، محدثاً نفسه في مونولوج داخلي مرير: "أنا لا أزيف الفن، أنا فقط أسترد حقي وحق ابنتي من عالم لا يحترم إلا المظاهر المزيفة الكاذبة". كانت حركة يده على القماش انسيابية بشكل مخيف، وكأن ريشة الرسام الراحل قد بُعثت فيه من جديد، تطاوعه في وضع الظلال والخطوط.

ومع كل بقعة لون يضعها، كان يشعر بجزء من كبريائه الأكاديمي القديم يتلا

اشى، ليحل محله شعور غريب بالقوة؛ قوة القدرة على خداع التاريخ نفسه. كانت رائحة الأحبار الكيميائية النفاذة تمتزج بأنفاسه المتسارعة، لتصنع مناخاً معزولاً عن العالم الخارجي وقوانينه.

عندما بدأ اللون يتشرب في أنسجة القماش، وقف سامي يراقب النتيجة بعينين محملتين بالإرهاق والذهول. لقد تداخلت الحدود في عقله تماماً، ولم يعد يعرف إن كان ما يفعله الآن هو قمة الإبداع العلمي، أم بداية السقوط الحر في قاع الجريمة.

مع بزوغ الفجر، كانت اللوحة قد اكتملت تماماً. وضعها سامي تحت إضاءة قوية، وتراجع خطوتين للخلف لينظر إليها. شعر برعب حقيقي يجتاح كيانه؛ فاللوحة المخطوطة بيده كانت تطابق الأصلية بشكل يعجز هو نفسه، صانعها ، عن التمييز بينهما.

امتزجت في داخله مشاعر الفخر الفني بالخزي الجنائي. كانت الألوان تبدو حية، والضربات على القماش تحمل ذات الروح العبقرية التي تميز بها صاحب اللوحة الأصلي. لقد تلاشت الفوارق بين الحقيقي والمزيف تحت ضربات فرشاته وكيميائه الخاصة، وأثبت لنفسه أن موهبته المهدرة كانت أكبر بكثير من الجدران التي حُبس داخلها لسنوات.

سلم اللوحة لأبو طارق في موعدها، وتلقى في مقابلها رزمة من الأموال النقدية التي تفوح منها رائحة الحبر الجديد. لم ينظر إلى وجه الرجل، بل امتدت يده لتأخذ المال بسرعة كمن يحاول التخلص من جمرة تحرق أصابعه. توجه مباشرة إلى المستشفى ودفعت فاتورة العلاج المتأخرة، مظهراً قدرة مذهلة على التكيف مع واقعه الجديد.

بينما كان يقف خلف الزجاج يراقب ابنته وهي تنام بسلام بعد تلقيها الرعاية الطبية اللازمة، شعر ببرود غريب يتسلل إلى قلبه. لم يعد الندم يؤرقه كما كان يفعل في البداية؛ فالنتيجة الملموسة أمامه بررت في نظره كل الوسائل الكيميائية والمادية التي اتبعها في عتمة ليلته الماضية.

جلس على أحد المقاعد الخشبية في ممر المستشفى، ووضع رأسه بين يديه الملوثتين بقايا الأصباغ التي رفضت الزوال تماماً. كانت الموهبة في داخله قد حسمت خيارها، ولم تعد تهتم بالفرق بين الحق والباطل، ما دام الباطل هو الوحيد القادر على بث الحياة في عروق عائلته.

دخل سامي المنزل حاملاً أكياساً من الطعام الفاخر وألعاباً جديدة للينا، مما أثار ريبة نادية التي عهدت ضيق حاله. وضعت الأكياس على طاولة المطبخ، وبدأت تفرزها بعينين متفحصتين، تبحث في تفاصيلها عن تفسير لهذا التحول المفاجئ الذي لم يمهد له مقدمات.

في المطبخ، وبينما كان يغسل يديه من بقايا الأحبار، وقفت نادية خلفه وسألته بنبرة مباشرة وهادئة: "من أين لك هذا المال يا سامي؟". تجمد سامي للحظة، وتوقف انسياب الماء فوق أصابعه التي ما زالت تحمل آثار الصبغة الداكنة تحت الأظافر.

استدار ورسم على وجهه ابتسامة هادئة ومخيفة، مدعياً أنه نال سلفة مالية ضخمة لمشروع ترميم حكومي. كانت نبرته هادئة أكثر من اللازم، خالية من التردد الذي اعتادت عليه فيه كلما واجه ضائقة مادية، مما أكد لها أن خلف هذه السكينة سراً عميقاً.

نظرت في عينيه، وعرفت أنه يكذب تماماً، لكنها نظرت لصورة ابنتها الشافية، فاختارت التواطؤ الصامت وأكملت إعداد العشاء دون تعقيب. غمرت المكان رائحة الطعام، لكن الهواء ظل ثقيلاً بوعي مشترك بأن الحياة التي يعيشونها من الآن فصاعداً مبنية على أرض هشة وقواعد جديدة لم يتفقا عليها علناً.

تناولا العشاء وسط تبادل كلمات مقتضبة وعابرة، وتجنب كلاهما النظر إلى أصابع الآخر. استقرت رزمة الأموال في درج المكتب المغلق، لتتحول إلى جدار غير مرئي يفصل بين ماضيهما الشريف وحاضرهما الذي بدأ يتشكل في عتمة المطبعة.

لم يتأخر أبو طارق في العودة، لكنه لم يأتِ هذه المرة بلوحة فنية، بل أتى برسالة شفهية من "شخصية نافذة" تطلب تزوير وثائق وصكوك عقارية تاريخية تبلغ قيمتها الملايين. جلس أبو طارق على المقعد الخشبي الوحيد في المطبعة، نافثاً دخان سيجارته ليتصاعد ويمتزج بغبار المكان ورائحة الأحبار الكيميائية العتيقة.

شعر سامي بأن الشباك بدأت تتسع وتتحول من خداع فني إلى تزوير جنائي مباشر يهدد أمن الدولة. تراجع خطوة إلى الوراء، ونظر إلى يديه اللتين برعتا في محاكاة ريشة العباقرة، كيف لهما أن تلوثا بكتابة صكوك وأختام مزيفة لسرقة أراضٍ وحقوق؟ كانت الفكرة بحد ذاتها تثير في نفسه رعباً يختلف عن رعب المرة الأولى.

تردد كثيراً هذه المرة، وحاول إبداء الرفض متعللاً بأن اختصاصه هو كيمياء الألوان واللوحات وليس تزوير الوثائق الرسمية، لكن صورة الاستقرار المالي الجديد وجدول علاج ابنته القادم جعلت مدة تردده أقصر بكثير من المرة الأ

أولى، ليعلن موافقته المبدئية ويبدأ في الغوص أعمق في الوحل.

أخرج أبو طارق من حقيبته الجلدية نموذجاً مصغراً لختم قديم يعود لعهد مضى، ووضعه على الطاولة قائلاً بنبرة خفيضة: "صاحب العمل لا يظهر في الصورة، لكن أمواله تفتح الأبواب المغلقة، والمطلوب منك فقط أن تجعل هذا الختم يبدو كأنه صُنع قبل مئة عام". تطلع سامي إلى الختم النحاسي، وشعر أن ملامحه بدأت تختفي خلف هذا العمل الجديد ليكون مجرد أداة لزبون بلا وجه.

عندما غادر أبو طارق، أغلق سامي الباب بالمفتاح وجلس وحيداً في العتمة. تداخلت في رأسه الأفكار، وعرف أنه بتجاوزه هذه الخطوة لم يعد فناناً يمر بأزمة مالية، بل أصبح جزءاً من شبكة مظلمة لا ترحم من يدخلها ولا تسمح لأ حد بالالتفات إلى الوراء.

تم ترتيب اللقاء الأول في مكتب الحاج رضوان، رجل الأعمال الفاسد الذي يجمع بين الجهل المطبق والثراء الفاحش. كان المكتب يقع في الطابق العلوي من برج زجاجي شاهق يطل على المدينة بأكملها، لكن تفاصيل المكان كانت تعكس ذوقاً رديئاً يحاول جاحداً شراء العراقة بالمال.

جلس رضوان خلف مكتبه الفاخر المصنوع من خشب الأبنوس، وتحيط به تحف أثرية أصلية لا يفقه من تاريخها شيئاً، بينما جلس سامي، العالم الأ كاديمي، أمامه كأجير مكسور الجناح. كان الحاج رضوان يرتدي خاتماً ضخماً يلمع في إصبعه، ويتحدث بنبرة واثقة تفوح منها سلطة النفوذ والمادة.

ابتسم رضوان ابتسامة صفراء وعرض مبالغ خيالية تتجاوز أحلام سامي،

مقابل تزوير صكوك ملكية لأراضٍ شاسعة تعود لعهد قديم، مؤكداً له أن القانون يُصنع لمن يملك المال فقط. لم يكن ينظر إلى سامي كخبير في الفنون، بل كأداة كيميائية طيعة يمكنها تحويل الأوراق البيضاء إلى ثروات طائلة.

كان سامي يستمع إلى الكلمات وشعور بالمهانة يزحف إلى أعماقه. هذا الرجل الذي لا يستطيع التمييز بين أنواع الأحبار التاريخية، يملك القدرة على التحكم في مصائر البشر بمجرد إشارة من إصبعه. ورغم ذلك، فإن الأرقام التي نطق بها رضوان كانت كفيلة بإخراس أي صوت للاحتجاج داخل صدره.

انتهى اللقاء باتفاق صامت؛ تسلم سامي الأوراق القديمة والمستندات المراد محاكاتها، وغادر المكتب وهو يشعر بأن المسافة بين البرج الزجاجي ومطبعته العتيقة ليست مجرد مسافة في الجغرافيا، بل هي الهوة السحيقة التي سقط فيها بكامل إرادته.

استحال ليل المطبعة إلى ورشة عمل سرية ومعمل متكامل للجريمة المنظمة. كان سامي يعمل لساعات متأخرة، يمزج مركبات كيميائية معقدة للحصول على حبر باهت يحاكي الأحبار المستخدمة قبل مئة عام، ويستخدم تقنيات تعتمد على الحرارة والرطوبة لتقادم الأوراق واصطناع الأختام الرسمية.

كانت الإضاءة المسلطة على طاولة العمل خافتة وموجهة بدقة، تحول جدران المطبعة إلى ظلال داكنة تتراقص مع كل حركة من حركاته. تحولت قوارير الأصباغ والمحاليل الحمضية إلى أدوات لخلق تاريخ مزيف، وكان سامي يتحرك بينها بخبرة العالم وصمت الشبح، مستمتعاً في أعماقه بـ التحدي العلمي الذي تفرضه عليه كل ورقة.

وفي منتصف ليلة شديدة السواد، توقف عن العمل فجأة، وأمسك بورقة مسودة ورسم عليها وجهاً تعبيرياً نابضاً بالحياة لابنته لينا، تأملها طويلاً، ثم أشعل فيها النار ليراها تتحول إلى رماد، كأنما يحرق بقايا براءته بيديه. راقب الدخان المتصاعد وهو يتلاشى في سقف المطبعة، وشعر بقسوة البرد المحيط به.

كان يدرك أن كل صك ملكية يزيفه يعني سلب حق إنسان آخر في مكان ما، لكنه كان يطرد هذه الأفكار فوراً عبر استدعاء صورة سرير المستشفى وجدول المواعيد الطبية المعلق في منزله. لقد أصبحت التبريرات جاهزة في عقله، مدربة على إسكات أي بادر تأنيب قد يفسد دقة الخطوط التي يخطها.

عندما بدأ الفجر ينسج خيوطه الأولى عبر النوافذ المرتفعة، قام سامي بتغطية أدواته الكيميائية والأوراق بقطع من القماش القديم. نظر إلى يديه المتعبتين، ثم استند برأسه على الطاولة، مستسلماً لنوم مضطرب تفوح فيه رائحة الأحبار المحترقة والأسرار التي باتت تطارده حتى في أحلامه.

في الصباح التالي، امتلأت المطبعة بحركة غير معتادة؛ فقد جاء أبو طارق برفقة سكرتير الحاج رضوان الخاص، الشاب "مجدي" الذي كان يحمل ملامح حادة ونظرات لا تثق بأحد. وضع مجدي حقيبة جلدية سوداء على الطاولة، وفتحها ليكشف عن مجموعة من الوثائق الأصلية التي سرقت من دار المحفوظات الوطنية، لتكون مرجعاً دقيقاً لسامي في تزوير الصكوك القادمة.

شعر سامي بالتوتر يملأ الأجواء، فلم يعد الأمر مجرد وسيط يثق به كأبو طارق، بل بدأت الدائرة تتسع لتشمل أطرافاً أكثر دموية وجشعاً. دار حوار حاد بين أبو طارق ومجدي حول الحصص والنسب المئوية من الأراضي التي

سيتم الاستيلاء عليها، وكان كل منهما ينظر للآخر بنظرات تحمل التهديد المبطن، مما جعل سامي يدرك أنه ليس سوى حلقة في سلسلة من الشركاء الأ عداء الذين قد يضحون به عند أول منعطف خطير.

انسحب سامي إلى زاوية المعمل وبدأ في فحص الورق التاريخي المسرق، مستعرضاً مهاراته في تحديد نوع الألياف السيليوزية ونسبة الرطوبة، محاو لاً عزل نفسه عن مشاحناتهم المادية. كان يعلم أن صمته وكفاءته هما درعه الوحيد في هذه اللعبة؛ فالخروج منها الآن لم يعد خياراً مطروحاً، وكل خطوة يخطوها إلى الأمام تزيد من عمق الشرك الذي أوقع نفسه فيه بكامل إرادته الأ كاديمية.

في الجانب الآخر من المدينة، وتحديداً في مبنى مديرية الأمن العتيق، كان العقيد كمال يجلس خلف مكتبه الغارق في أكوام من الملفات والقضايا الجنائية المعقدة. كان كمال رجلاً في أواخر الأربعينيات، عُرف بذكائه الحاد وقدرته الفائقة على قراءة ما بين السطور، وامتلاكه حاسة شم جنائزية تكشف الجريمة قبل أن تكتمل معالمها.

أمسك العقيد كمال بملف صك ملكية أرض شاسعة، قُدم مؤخراً من قِبل محامي الحاج رضوان لتوثيقه رسمياً. مرر أصابعه فوق الورق المصفر، ثم قربه من أنفه واستنشق عمق الورق ببطء. لم تكن الرائحة غريبة عليه، لكن ثمة تفصيل كيميائي صغير لم يرق له؛ كانت هناك مسحة من رطوبة مصطنعة تحاول إخفاء رائحة مركبات حديثة.

التفت إلى مساعدة الضابط الشاب "طارق" وقال بنبرة حازمة: "هذا الورق يبدو قديماً يا طارق، لكن الحبر يتحدث بلغة أخرى.. لغة لم تُكتب قبل مئة

عام. هناك عبقري كيميائي خلف هذه السطور، شخص يعرف كيف يخدع الأ
عين، لكنه نسي أن الأحبار التاريخية لها بصمة روحية لا يمكن تقليدها ب
الكامل".

أمر كمال بإرسال الوثيقة فوراً إلى المختبر الجنائي المركزي لإجراء تحليل طيفي دقيق للروابط الجزيئية للأصباغ، وبدأ في تدوين الملاحظات الأولى في مفكرته الخاصة. شعر في أعماقه أن هذه القضية لن تكون مجرد قضية تزوير عادية، بل هي بداية مواجهة ذهنية شرسة مع عقل يملك من العلم ما يجعله نداً حقيقياً لرجال القانون.

داخل الغرفة المعقمة للمختبر الجنائي المركزي، كانت الأجهزة الحديثة تصدر أزيزاً خفيفاً وسط إضاءة نيون بيضاء حادة. وقف العقيد كمال بجانب طبيبة التحليل الطيفي، يراقب الشاشة الكبيرة التي تعرض تكبيراً مجهرياً لألياف الصك العقاري المثير للشبهات.

مررت الطبيبة شعاع الليزر فوق الختم النحاسي المطبوع على الورق، وظلت تتابع المنحنيات البيانية التي بدأت تظهر على شاشة الحاسوب. التفتت إلى كمال وقالت بنبرة خجولة لكنها حاسمة: "سيادة العقيد، تخمينك كان في محله تماماً. الورق يعود بالفعل إلى مطلع القرن الماضي، لكن الحبر المستخدم في الكتابة والأختام يحتوي على مركبات كيميائية ومذيبات حديثة لم تُنتج في الأسواق قبل عام 2010".

أشارت بإصبعها إلى نقطة محددة على الشاشة وتابعت: "المزور عبقري، لقد استخدم أسلوب التعتيق الحراري وأبخرة الأمونيا ليحاكي عامل الزمن بدقة تضلل العين المجردة، لكنه ترك خلفه بصمة جزيئية فريدة نتيجة خلطه لأ

أصباغ عضوية معينة، وهي تركيبة لا تصدر إلا عن معمل شخص محترف يمتلك دراية عميقة بكيمياء الأحبار".

انقبضت أسارير العقيد كمال، واشتعلت في عينيه رغبة التحدي. تطلع إلى الرسم البياني وعرف أن خصمه ليس مجرد مجرم هاوٍ، بل هو فنان وعالم ضل طريقه. التفت إلى مساعده طارق وأصدر أمره الأول في مسار الملاحقة: "ابحث لي في سجلات خريجي كليات الفنون والعلوم والذين يمتلكون تخصصاً في كيمياء الأصباغ، وأريد حصر كل من يمتلك مطبعة قديمة أو مختبراً خاصاً في محيط المدينة".

لم يتطلب الأمر سوى يومين من البحث المكثف حتى عاد الضابط طارق وبيده قائمة قصيرة تحتوي على خمسة أسماء فقط. وضع القائمة أمام العقيد كمال قائلاً: "سيادة العقيد، هؤلاء هم الأشخاص الذين يجمعون بين التخصص الأكاديمي في كيمياء الأصباغ وامتلاك ورش أو مطابع في المدينة ، وأبرزهم اسم يثير الاهتمام بشكل خاص".

وضع كمال سبابته على الاسم الثالث في القائمة: الدكتور سامي. تفرس في ملفه الشخصي؛ عالم وباحث أكاديمي عريق، متخصص في ترميم المخطوطات وكيمياء الألوان، ويمتلك مطبعة قديمة ورثها عن عائلته وتعاني من ضائقة مالية شديدة، فضلاً عن مروره بأزمة أسرية بسبب مرض ابنته.

تمتم كمال وهو يشعل سيجارته: "الدافع والموهبة والوسيلة.. ثلاثة خطوط تلتقي كلها في هذه المطبعة العتيقة. الرجل كان يعيش في الظل، وفجأة سدد كل ديونه وفواتير المستشفى الباهظة بنقد كاش. من أين لعالم منسي بكل هذه الأموال؟".

التفت العقيد كمال إلى مساعده وأصدر أمراً حاسماً: "ضع المطبعة تحت المراقبة السرية اللصيقة على مدار الأربع وعشرين ساعة. أريد تقريراً وافياً عن كل من يدخل ويخرج من ذلك المكان، ولا تتحركوا حتى يقع الصياد في شباكه وهو ممسك بأدوات الصيد".

خلف زجاج سيارة أجرة متهالكة ركنت على الجانب الآخر من الشارع، كان الضابط طارق يراقب واجهة المطبعة العتيقة بعدسات منظاره المقرب. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، والمدينة غارقة في هدوء حذر، لا يقطعه سوى وميض خافت ينبعث من شق صغير في ستارة نافذة المطبعة العلوية.

في الداخل، كان سامي غافلاً تماماً عن العيون التي ترصد حركاته. انهمك بكل حواسه في ضبط قوام سائل كيميائي لزج، مستخدماً قطارة زجاجية ليعاير بدقة متناهية قطرات محلول نترات الفضة فوق خطوط ختم رسمي جديد. كان العرق يتصبب على جبينه، يمسحه بطرف كمه الملوث بالأصباغ، بينما ينساب صوت تروس الآلة القديمة في خلفية المشهد كدقات قلب متسارعة.

على الشاشة الصغيرة لهاتف طارق، تم تسجيل دخول سيارة سوداء فاخرة إلى الزقاق الضيق المؤدي للمطبعة. ترجل منها سكرتير الحاج رضوان، الشاب مجدي، وهو يحمل حقيبة مستندات مغلقة. ضغط طارق على زر جهاز اللا سلكي وأرسل إشارة مشفرة خفيضة: "الذئب يقترب من العرين، سيادة العقيد. الحركة بدأت الآن".

تلقى العقيد كمال الإشارة في مكتبه، وقام بهدوء ليرتدي معطفه، وعيناه تلمعان ببريق الانتصار المقترب. تمتم لنفسه وهو يغلق حزامه: "انتهى وقت اللعب يا دكتور سامي. شباك العنكبوت التفت حولك، ولم يعد أمامك سوى

بضع خطوات قبل أن تدرك أن الحبر الذي لوثت به يديك لن يمحوه ندم".

دخل مجدي إلى المطبعة دون أن يطرق الباب، ملقياً بالحقيبة الجلدية الثقيلة فوق طاولة العمل لتحدث دويّاً وسط سكون المكان. تنحنح بحدة وقال بصوت خفيض: "هذه آخر مجموعة من الأوراق يا دكتور. الحاج رضوان يريد إنهاء صكوك أراضي الساحل قبل نهاية الأسبوع، والمقابل هنا جاهز.. الضعف عما تقاضيته في المرة السابقة".

نظر سامي إلى الحقيبة المفتوحة، حيث لمعت رزم الأموال تحت الضوء الأ صفر الخافت للمصباح المعلق. لم تعد تغريه الأرقام كما في السابق، بل أصبح يشعر بثقل يطبق على صدره؛ فالخوف من المجهول بات يشاركه فراشه كل ليلة. التقط ورقة من الصكوك القديمة وبدأ يفحص ملمسها بطرف سبابته، محاولاً إخفاء ارتعاشة يده عن عيني مجدي الحادتين.

"هذه الأوراق تحتاج إلى معاملة خاصة، أليافها متهالكة ونسبة الرطوبة فيها عالية"، قال سامي بنبرة حاول أن تبدو مهنية جامدة. رد مجدي وهو يتجه نحو الباب ببرود: "لا يهمنا كيف ستفعلها، المطلب الوحيد هو الكمال. تذكر أننا في قارب واحد الآن، وأي خطأ يعني الغرق للجميع".

بمجرد إغلاق الباب، التفت سامي إلى مرآة صغيرة معلقة على الجدار الجانبي. تفرس في ملامحه المجهدة، والهالات السوداء التي حفرت مجراها تحت عينيه، وتساءل إن كان هذا الرجل الشاحب الملوث بالأصباغ الكيميائية هو ذاته الأستاذ الجامعي الذي كان يلقي محاضراته عن الأمانة العلمية و القيم الإنسانية.

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ساد الهدوء التام في محيط المطبعة، لكن هذا الهدوء كان مجرد الستر الذي يسبق العاصفة. تقدمت ثلاث سيارات تابعة للشرطة بصمت وبأضواء مطفأة، لتغلق المداخل والمخارج المؤدية إلى الزقاق الضيق.

ترجل العقيد كمال من سيارته، مرتدياً سترته الواقية، وخلفه عدد من رجال ا لأمن المسلحين. أشار بيده إلى الضابط طارق لتوزيع الأفراد؛ فتحركت مجموعة لتأمين الباب الخلفي، بينما وقفت القوة الرئيسية مستعدة لكسر الباب الأمامي للمطبعة.

في الداخل، كان سامي قد انتهى للتو من وضع اللمسات الأخيرة على أحد الصكوك المزيفة. وبينما كان يرفع الورقة ليجففها فوق موقد حراري صغير، سمع صوت حرك دقيقة غير معتادة بالخارج، تلاها دويّ عنيف اهتزت له جدران المكان؛ لقد تم تحطيم قفل الباب الخارجي بنجاح.

انفتحت الأبواب على مصراعيها، واقتحمت القوة المكان وسط نداءات حازمة: "الشرطة! لا تتحرك من مكانك وضَع يديك فوق رأسك!". تيبس سامي في مكانه، وسقطت القطارة الزجاجية من يده لتتحطم على الأرض، وتختلط محاليلها الكيميائية بالحبر المنسكب، معلنةً نهاية الرحلة في وادي التزوير المظلم.

خطا العقيد كمال داخل المطبعة بخطوات واثقة وهادئة، يحيط به رجال الأ من الذين بدأوا في تحريز الأدوات والأوراق المتناثرة. تطلع كمال إلى وجه سامي الشاحب، ثم التقط الصك المزيف الذي كان بيده قبل ثوان، وقربه من عينيه متفحصاً الخطوط والأختام بدقة.

ابتسم العقيد كمال وقال بنبرة تملؤها الهيبة: "عمل متقن جداً يا دكتور سامي.. كيمياء مذهلة، وألوان تحاكي مئة عام من الزمان ببراعة فائقة. لكن كما أخبرت طارق سابقاً، الأحبار التاريخية لها بصمة روحية لا يمكن للعلم الحديث أن يخفي زيفها بالكامل". كان صوته يتردد في أرجاء المطبعة العتيقة ليقطع السكون الذي أعقب العاصفة.

لم يحاول سامي المقاومة أو الهروب؛ فقد تلاشت كل قوته فجأة، وشعر بنوع من الراحة الغريبة تنساب في جسده المنهك، وكأن الكابوس الذي عاشه لشهور قد انتهى أخيراً. نظر إلى يديه الملوثتين بقايا الحبر الأسود ونترات الفضة، ثم رفع عينيه بثبات نحو العقيد وقال بصوت خفيض مكسور: "أنا لم أكن أريد المال لنفسي.. ابنتي لينا كانت تموت، ولم أجد باباً شريفاً يفتح لي لإ نقاذها".

اقترب منه العقيد كمال، وأشار إلى رجاله بوضع الأصفاد الحديدية في يديه، ثم قال بنبرة تخلت عن قسوتها الجنائية للحظة: "أفهم دافعك كأب يا دكتور، لكن علمك الذي وهبته لتزوير الحقائق سلب حقوق ناس آخرين لا ذنب لهم. الموهبة التي لا تحمي صاحبها من السقوط، تتحول إلى لعنة تطارده حتى خلف القضبان".

سار سامي بين رجلي أمن متجهاً إلى الخارج، وعند عتبة الباب، التفت ليلقي نظرة أخيرة على آلاته وأحبار طاولة العمل التي شهدت ولادة وسقوط "صانع الحقائق المزيفة". ركب سيارة الشرطة، وانطلقت به في عتمة الليل، تاركةً خلفها زقاق المطبعة العتيقة يغرق في صمت طويل.

مرت أشهر عدة على تلك الليلة العاصفة. هدأ ضجيج القضية في وسائل الإع

لام، وتفككت شبكة الحاج رضوان وأعوانه بعد أن قادت اعترافات سامي التفصيلية إلى كشف كل خيوط الفساد واسترداد الحقوق لأصحابها.

داخل أسوار السجن الإصلاحي، في غرفة واسعة تدخلها خيوط الشمس عبر نوافذ مرتفعة محمية بالقضبان، لم يكن سامي يجلس منكسراً. أثمرت اتصالا ت العقيد كمال وإيمانه بموهبة هذا العالم عن تحويل زنزانته إلى معمل مصغر، ولكن هذه المرة لغاية نبيلة؛ إعادة ترميم المخطوطات والكتب التاريخية التالفة التابعة لدار الوثائق الوطنية.

جلس سامي خلف طاولته الخشبية الجديدة، مرتدياً ملابس السجن الزرقاء، وبيده ذات الفرشاة الدقيقة والقطارة. امتزجت على أصابعه ألوان جديدة، لكنها كانت ألواناً تعيد إحياء التاريخ ولا تزيفه. كانت رائحة الأحبار تحيط به، لكن الهواء لم يعد ثقيلاً بالخوف؛ فقد بات يشعر بنقاء لم يذقه منذ سنوات، وكأن كل بقعة حبر يرمم بها ورقة عتيقة تمحو جزءاً من ذنب ماضيه.

تلقى في ذلك الصباح رسالة من نادية تخبره فيها أن "لينا" تماثلت للشفاء تماماً، وبدأت تعود لمدرستها بابتسامة تملأ وجهها، وأنهم ينتظرون يوم زيارته بفارغ الصبر. وضع الرسالة بجانب قلبه، ونظر إلى لوحة صغيرة رسمها لابنته وعلقها على الجدار الإسمنتي، حيث بدت الألوان فيها زاهية وحقيقية، خالية من أي زيف. ابتسم سامي ودق جرس الساعة الحائطية في ممر السجن، فأمسك بوثيقة تاريخية يعود عمرها لقرون، وبدأ يضع لمساته الكيميائية المتقنة بضمير حيّ وعقل متزن. لقد أدرك أخيراً أن الموهبة والعلم لا قيم لهما إن لم يحرسهما الحق، وأن زنزانة ضيقة ينام فيها المرء مرتاح البال، أرحب بكثير من برج زجاجي مشيد على أنقاض الحقيقة.

قصة: كاتب باجة (سيرة ذاتية)

في مدينة باجة، تلك المدينة التونسية التي تنام بين أحضان التلال وتستيقظ على صوت الهواء وهو يمر بين أزقتها القديمة، كان هناك فتى هادئ لا يشبه ضجيج العالم من حوله. مدينة تحمل في حجارتها آثار حضارات مرّت، وتترك في تفاصيلها الصغيرة إحساسًا بأن كل زاوية فيها كانت شاهدًا على زمن آخر، وكأن المكان نفسه يحتفظ بذاكرة لا تموت. في هذا الفضاء الذي يبدو بسيطًا من الخارج لكنه عميق في داخله، نشأ ذلك الفتى الذي لم يكن صوته يسبق حضوره، بل كان حضوره يُكتشف بصمت. لم يكن من أولئك الأطفال الذين يُعرفون بسرعة كلامهم أو كثرة حركتهم، بل كان يميل إلى الهدوء والتأمل. يمشي ببطء وكأنه يقرأ العالم بدل أن يعيشه فقط، يلاحظ التفاصيل الصغيرة التي تمر على الآخرين دون انتباه، ويخزن في داخله صورًا وأصواتًا وروائح لا يلتفت لها أحد. كان يرى في الأشياء البسيطة ما هو أعمق من ظاهرها، وكأن داخله عينًا أخرى تراقب الحياة من زاوية مختلفة. قضى كثيرًا من وقته في المنزل، في ذلك الدفء العائلي الذي كان يشكل له ملجأً من ارتباك العالم الخارجي. كان يجلس أمام شاشة التلفاز ويتابع برامج وأفلام الطفولة، ويعيش عوالم بعيدة عن واقعه، عوالم تمنحه شعورًا مؤقتًا بالانتماء إلى شيء أكبر من يومه العادي. ومع ذلك، كانت الأيام تمر في هدوء ممل أحيانًا، بلا هدف واضح، وبلا إحساس ثابت بأن هناك طريقًا محددًا ينتظره. في تلك المرحلة المبكرة من حياته، لم تكن لديه

طموحات واضحة. لم يكن يعرف ماذا يريد أن يكون، ولا كيف يجيب على السؤال الذي يتكرر على كل طفل: ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟ كان يقف أمام هذا السؤال بصمت داخلي، ليس لأنه لا يريد الإجابة، بل لأنه لم يجد داخل نفسه إجابة حقيقية بعد. كان يبحث عن شيء يشبهه، عن موهبة أو حلم أو اتجاه يمنحه شعورًا بالانتماء إلى ذاته، لكنه لم يكن قد وجده بعد. جرّب العديد من الأشياء في حياته الصغيرة، حتى الرياضات لم يتركها تمر دون محاولة. كان ينتقل من تجربة إلى أخرى وكأنه يفتش عن نفسه في كل محطة، لكن كل مرة كان يخرج بالإحساس ذاته: هناك شيء ناقص، شيء لم يكتمل بعد، شيء لا يشبهه تمامًا. لم يكن ذلك فشلًا بقدر ما كان بحثًا صامتًا عن الهوية. في تلك الفترة أيضًا، كان ينظر إلى نفسه نظرة قاسية أحيانًا. كان يشعر بأنه شخص بارد، وكأنه بلا مشاعر واضحة أو قدرة على التعبير. داخله كان مليئًا بأشياء كثيرة، لكن الخارج لم يكن يعكسها. لم يكن يعرف كيف يترجم ما يشعر به إلى كلمات أو سلوك، فبقيت كثير من مشاعره محبوسة في الداخل، تتحرك بصمت دون أن تجد طريقًا للخروج. ورغم هذا الارتباك الداخلي، كانت هناك لحظات قصيرة مضيئة لا تُنسى. لحظات شعر فيها، ولو مؤقتًا، أنه أقرب إلى نفسه الحقيقية. كان ذلك يحدث غالبًا حين يكون في حـ الة هدوء، أو حين ينفصل عن الضجيج من حوله، فيشعر أن داخله يتنفس بشكل أوضح. لم يكن يعرف آنذاك أن هذا الهدوء الذي يعيشه ليس فراغًا، بل هو بداية تشكل شيء أعمق. ثم جاءت اللحظة التي غيرت مسار الكثير من الأ شياء داخله، دون أن تبدو في ظاهرها لحظة عظيمة. كان في فصله الدراسي و تحديدا في سنة سابعة حين لاحظ أستاذه سيد شريف، ذلك الأستاذ الذي سيبقى أثره حاضرًا في ذاكرته، وهو يكتب شيئًا مختلفًا: قصيدة يكتبها

لزميلته. لم يكن الأمر درسًا ولا واجبًا ولا شرحًا، بل كان كتابة صادقة نابعة من شعور إنساني حقيقي. في تلك اللحظة، توقف داخله شيء صغير عن الحركة ثم بدأ يتحرك بطريقة جديدة. رأى لأول مرة أن الكلمات ليست مجرد واجبات مدرسية أو إجابات صحيحة وخاطئة، بل يمكن أن تكون حياة كاملة تُكتب. يمكن أن تكون وسيلة لقول ما لا يُقال، ولحمل ما يعجز عنه الصمت. منذ تلك اللحظة، أخذ قلمًا وكتب. كانت المرة الأولى التي يكتب فيها شيئًا لا علاقة له بالدراسة أو المطلوب منه، بل شيء يخرج من داخله هو فقط. كانت الجمل بسيطة، ربما ساذجة من منظور خارجي، لكنها بالنسبة له كانت صادقة إلى درجة لم يعرفها من قبل. شعر أن هناك بابًا انفتح في داخله دون أن ينتبه أحد. ومن هنا بدأت رحلته الحقيقية مع الكتابة. لم تكن البداية قرارًا كبيرًا أو خطة واضحة، بل كانت اكتشافًا تدريجيًا أن هذا الفعل البسيط قادر على أن يعيد ترتيب داخله. شيئًا فشيئًا، بدأ يفهم نفسه من خلال ما يكتب، وبدأ يرى أن ما كان يعتبره برودًا ربما لم يكن إلا صمتًا لم يجد لغة بعد. بدأ يجرب أشكالًا مختلفة من الكتابة. جرّب الشعر فوجد فيه موسيقى داخلية، وجرّب النثر فوجد فيه مساحة أوسع للتعبير، وكتب نصوصًا قريبة من الأغاني شعر فيها بالإيقاع يسري بين الكلمات، وكتب مسرحيات حاول من خلالها أن يفهم الشخصيات والصراعات الإنسانية. كان كأنه يبحث عن الشكل الذي يناسب روحه، عن الوعاء الذي يمكن أن يحتوي ما بداخله دون أن يضيّعه. لكن مع الوقت، وجد نفسه أقرب إلى القصة. في القصة شعر أن هناك بيتًا حقيقيًا له، مساحة يمكن أن يتنفس فيها دون قيود. كان يكتب أحيانًا وهو يستمع إلى الموسيقى، وكأن الصوت الخارجي يبني حوله عزلة خاصة تساعده على الدخول في عالمه الداخلي. في تلك اللحظات، كانت القصص تولد ببطء،

وتتشكل من أفكاره ومشاعره وتجربته مع الحياة. لم يكن يكتب فقط حين يكون في مزاج جيد، بل كان يكتب أيضًا حين يشعر بالضيق أو الوحدة أو الا رتباك. اكتشف أن الكتابة ليست رفاهية، بل حاجة داخلية، شيء يشبه التنفس. كانت وسيلته لترتيب الفوضى التي بداخله، ولإخراج ما لا يستطيع قوله لأي شخص آخر. ومن بين ما كتبه، كانت هناك محاولات فكرية تمزج بين شغفه بالأدب وأشياء أخرى يحبها مثل الشطرنج. رأى في الشطرنج صورة للحياة: كل خطوة لها أثر، وكل قرار له نتيجة، وكل تضحية قد تفتح طريقًا جديدًا. وربط ذلك بالكتابة أيضًا، حيث كل كلمة لها مكانها وتأثيرها، وكل جملة يمكن أن تغيّر معنى النص كله. خلال هذه الرحلة، لم يكن وحده تمامًا. كان هناك دعم من عائلته، التي لم تفهم في البداية لماذا يقضي وقتًا طويلًا في الكتابة والقراءة، لكن مع مرور الوقت بدأت ترى نتائج هذا الشغف، فصار الدعم أكبر وأكثر وضوحًا. وكان هناك أصدقاء وأساتذة رأوا فيه شيئًا مختلفًا قبل أن يراه هو نفسه بالكامل. شارك كتاباته مع من كان يشعر أنهم قادرون على فهمه، لا مع الجميع، لأن النصوص بالنسبة له لم تكن مجرد كلمات، بل أجزاء من نفسه. وكان يشعر أن من يقرأها يجب أن يتعامل معها بحساسية واحترام، لأنها تحمل شيئًا حقيقيًا منه. بدأت بعض كتاباته تصل إلى مسابقات، وبدأ اسمه يظهر في أماكن مختلفة، ووصل إلى مراكز متقدمة في بعض المشاركات، ثم إلى مستوى أوسع. لكن رغم ذلك، لم يكن التوقف عند الفوز جزءًا من شخصيته. كان بعد كل إنجاز يعود إلى الورقة البيضاء من جديد، وكأن البداية أهم من النهاية دائمًا. ثم جاءت تجربة كانت مختلفة وقاسية في الوقت نفسه. شارك في مسابقة دولية كان يعتبرها فرصة كبيرة، وقدم فيها كل ما يملك من تجربة وجهد وأفكار. كان يشعر أنه وصل إلى

مرحلة نضج كافٍ ليُقدّر عمله. لكنه لم يفز. كانت الهزيمة ثقيلة، ليست مجرد نتيجة، بل سؤال داخلي قاس: هل كل ما بنيته كان كافيًا؟ هل كنت أتوهم تقدمي؟ هل أنا حقًا كاتب؟ مرت عليه أيام من الشك والتعب والتفكير في التوقف، في ترك الكتابة نهائيًا، في إغلاق هذا الباب. لكن في لحظة صمت، عاد إلى السبب الأول الذي جعله يكتب. لم تكن الجوائز هي البداية، بل كانت الحاجة الداخلية للتعبير. تذكر أن الكتابة كانت معه حين لم يكن هناك أحد، وأنها الشيء الوحيد الذي منحه معنى في فترات الضياع. عندها أدرك أن هذا الطريق ليس مجرد طموح يمكن التخلي عنه، بل جزء من هويته. عاد إلى الكتابة، لكن ليس كما كان من قبل. عاد أكثر وعيًا بحدوده، وأكثر فهمًا لمعنى الفشل، وأقل خوفًا منه. لم يعد النجاح بالنسبة له نقطة نهاية، بل أصبح مجرد محطة في طريق أطول. وفي موازاة ذلك، كانت تجربته مع الحياة تتعمق أكثر. في بداياته، لم يكن يملك طموحات واضحة، ولم يكن يعرف ماذا يريد أن يكون. كان يعيش حالة من البحث المستمر عن نفسه، بين تجارب مختلفة ومحاولات لاكتشاف ما يناسبه. لم يكن يشعر بالانتماء إلى أي شيء محدد، وكان يظن أحيانًا أنه بلا موهبة أو اتجاه واضح. كان يرى نفسه شخصًا صامتًا من الداخل، غير قادر على التعبير بسهولة، وكأنه بعيد عن مشاعره. لكن الكتابة غيّرت هذه الصورة تدريجيًا. أصبحت هي الوسيلة التي جعلته يرى نفسه بوضوح أكبر، ويفهم ما كان غامضًا داخله. تعلّم من الروايات والأفلام التي شاهدها الكثير. تأثر بأعمال مثل رواية البؤساء، وبأفلام نفسية مثل Psycho، ليس من باب الترفيه فقط، بل من باب فهم الإنسان وتعقيداته، وفهم الألم والصراع الداخلي، وفهم كيف تُبنى الشخصيات من داخلها لا من ظاهرها فقط. ومع الوقت، أصبح يدرك أن ما يفعله ليس مجرد تجربة عابرة،

بل طريق طويل يبني شخصيته قبل أن يبني مستقبله. لم يعد يسأل نفسه فقط هل سينجح، بل أصبح يسأل كيف يمكن أن يستمر. اليوم، وهو في هذه المرحلة من عمره، يحمل حلمًا واضحًا أكثر من أي وقت مضى: أن ينشر كتابه الأول، وأن يرى اسمه على غلاف يحمل جزءًا من روحه. لا يريد الكتابة من أجل الشهرة فقط، بل من أجل أن يصل صوته إلى شخص آخر يشعر أنه لم يعد وحيدًا. يريد أن يكتب شخصيات يشعر القارئ أنها تشبهه، أن يمر القارئ بتجاربها وكأنها جزء من تجربته هو، وأن يغلق الكتاب وهو يشعر أنه فُهم ولو مرة واحدة بصدق. ولأن الحياة لا تمنح الإنسان ما يتمنى بسهولة، بل ما يقاتل من أجله، فقد اختار منذ البداية أن يكون القلم جزءًا من معركته مع الحياة، لا مجرد هواية. وأن يستمر، ليس لأنه متأكد من النهاية، بل لأنه لا يستطيع العودة إلى نقطة البداية التي كان فيها بلا صوت. وهكذا، لم تعد الكتابة بالنسبة له مجرد فعل، بل أصبحت مسارًا طويلًا بدأ من باجة، من طفل لا يعرف ماذا يريد، وانتهى إلى شاب يحاول أن يخلق لنفسه مكانًا في العالم بالكلمات، ويؤمن أن الكلمة الصادقة قد تكون كافية لتغيير حياة إنسان واحد، وهذا وحده سبب كافٍ للاستمرار.